الشيخ منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

مكانة المرأة في الإسلام

أوراق شرقية

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

مَكانة المـرأة في الإسلام

[illegible]

الشيخ منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

١٠/٤
٣٣٤م

مكانة المرأة في الإسلام

أوراق شرقية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ . ٢٠٠٠ م

أوراق شرقية

للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا - ص. ب.: ١٤/٥٢٧٦ - بيروت - لبنان

هاتف: ٦٥٦٦٥٧ - ٦٥٦٦٥٨ - فاكس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

كنا فى ليلة اكتمل البدر فيها، وما رأيت ليلة سطع فيها نور القمر كهذه الليلة، ربما لكثرة الأصدقاء، أو لتلك النسمة الندية، أو هذا التحفز الذى يبدو على وجه الشباب، فترى روحانية تتنزل من العالم العلوى فَيُخَيَّل إليك أن الذين أمامك هم ملائكة فى زى بشر، وهذه ليلة طيبة هادئة.. خير السماء يتنزل على مَنْ بالأرض، لذلك جعلنا حديثنا عن «القرآن الكريم» وموقفه من قضية المرأة، لأن الإسلام هو الذى منحها الحقوق، فهَلُمَّ بنا فى ليلة الخير ننعم معاً بحديث القرآن عن المرأة. ليكون بداية الجزء الثاني من كتابنا «مكانة المرأة في الإسلام».

وهذه جلسات خير إن شاء الله. وبداية نضرع إلى الله أن يتقبل منا هذه اللقاءات ويجعلها في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

منصور

حديث القرآن عن المرأة

القرآن الكريم كتاب الله الذى نزل من علياء السماء بواسطة سيدنا جبريل ـ عليه السلام ـ على قلب سيدنا محمد ﷺ لينذر به الناس أجمعين: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾[1]. والقرآن نزل معجزة لسيدنا محمد ليتحدى به من يعاندونه ليكون دليلًا على صِدْق نُبُوَّتِه، ثم فيه تنظيمٌ للمجتمع وتشريع، وفيه كذلك قصص السابقين وأخبار الغابرين، ونبأ الحاضر وخبر المستقبل، يقول عنه نبى الإسلام سيدنا محمد ﷺ: «فيه نَبأُ مَنْ قبلكم، وخَبرٌ ما بعدكم». ومن التشريع الذى وَضَعَهُ القرآن السُّمو بمكانة المرأة، لأنه عند نزوله كان المجتمع يتربص بالمرأة ويسومها سوء العذاب، بل كان بعض الآباء يقومون بوأد بناتهم أحياء، علماً بأن الإسلام عندما جاء قرر للأنثى حق الحياة، لذلك كان قيس بن عاصم المنقرى يُحَدِّث بين يدى النبى ﷺ أنه وَأَدَ اثنتى عشرة بنتاً، فيقول له النبى ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَم»، وأَمَره أن يعتق عن كل واحدة جارية مؤمنة، ففعل.

فالإسلام منع الوأد، وبيَّن أن الموءودة سَتُسْأَلُ يوم القيامة: ما ذنبها حتى فعل بها الأب ذلك؟ يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ ﴾[2]. ورسول الله ﷺ حَبَّبَ إلى المسلمين رعاية البنات والعطف عليهن، وتعليمهن، حتى تنال الواحدة حقها فى الحياة. رَوَى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من كان له ثلاثُ بناتٍ، أو ثلاث أَخَواتٍ، أو بنتان، أو أختان، فأحسن صُحبتهن واتقى الله فيهن، فله الجنة».**

(١) سورة هود.

(٢) سورة التكوير.

والحق أن الوأْد لم يكن معروفاً إلا فى أماكن محددة عند قبائل ربيعة، وكندة، وتميم، وأفراد معدودين من مختلف القبائل. وكان بين العرب مَنْ يستوهب الفتاة من أبيها، منهم صعصعة بن ناجية التميمى، كان يبحث عَمَّنْ جاءَها المخاضُ فيستوهب زوجها المولودة، ويدفع له نظير ذلك بعيراً وناقتين عشراوين، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل القرشى، كان إذا أبصر برجل يهمّ بدفن ابنته يقول له: لا تقتلها وأنا أكفيك مئونتها، ثم يأخذ الفتاة حتى تشبّ وتكبر، فيقول لأبيها: إنْ شئتَ دفعتُها إليكَ، وإنْ شئتَ كفيتُك مئونتها.

هذا، وقد كان بعض العرب يضنون ببناتهم، وتأَمَّلْ ما حدث من صعصعة بن معاوية. خَطَب إلى عامر بن الظَّرِب ـ حكيم العرب ـ ابنته «عَمْرَة»، فقال: يا صعصعة، إنك أتيتنى تشترى كبدى، فارحم ولدى قبلك، أو ردَّه إلىّ، لأنّ الحسيب كُفْء الحسيب، والزوج الصالح أبٌ بعد أبٍ، وقد أنكحتك خشية ألّا أجد مثلك.

إن القرآن الكريم ـ وهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ أعطانا صورة واضحة عن عناية الإسلام بالمرأة، وليس بعد كلام الله كلام، لأنه الحقيقة الكاملة، ومَنْ أَصْدَقُ من الله حديثاً؟ لقد عرض القرآن فى كثير من السور ما للمرأة من حقوق، بل هناك سورة باسم «النساء». ونقرأ فى سورة «البقرة» بعض المسائل المتعلقة بالخطبة والزواج والطلاق والوصية. ثم عرض لها فى سورة «آل عمران» مبيّناً أن الذَّكَر ليس كالأنثى، وأن وَهْبَ الأنثى لخدمة بيت الله أَمْرٌ صحيح. وفى سورة «النساء» يبيِّن أن المرأة مساوية للرجل فى الخصائص الإنسانية، وأن لكل واحد ما كَسَبَ وما حقّق من عمل، وأن المرأة لها حقوق، فهى ليست متاعاً يُوَرَّثُ، وبَيَّنَ المحرَّمات على الرجل صيانةً للعفة، ليشيع جَوُّ الطُّهْر والفضيلة بين جدران الأسرة.

وعرض فى سورة «المائدة» حُكْم زواج المحصنات الكتابيات. وفى سورة «النور» وَضَّحَ الأسس فى حُكم مَنْ هَتَكَ الأعراض بالفعل أو القول، كما وَضَّحَ حُكم الدخول على المرأة فى غرف النوم من بعض العاملين فى المنزل. أمّا فى

سورة «الأحزاب» فعالج كثيراً من المشاكل المنزلية، ووضع لها الحلول، وقد اتخذت السورة زوجات الرسول ﷺ مثالاً حيًا فى وضع الأسس والقواعد. كما بيّنت سورة «القَصَص» فراسة المرأة ونباهة ذكرها، وذلك عند ذِكر بِنْتَى العبد الصالح، واقتراح إحداهما على أبيها اختيار موسى للعمل عنده. أما سورة «النمل» فتوضح لنا دهاء المرأة، ونَفاذ بصيرتها، وبُعْد نظرها، وذلك عند ذكر بلقيس. وسورة «المجادلة» تبيِّن أن الرسول ﷺ استمع إلى رأى المرأة المُجادِلَة، واحترم فيها ذكاءَها وهى تحاول أن تُبيِّنَ حالها، لهذا وضع المبدأ التشريعى للظِّهار، وكان هذا أثراً من آثار الفكر النسائى، وصفحة خالدة تلمح فيها ما يدل على احترام الإسلام للمرأة.

وفى سورة «الطلاق» بيَّن الوقت الذى يجب على الرجل أن يُراعيه إذا أرادَ أن يُطَلِّقَ زوجته اتقاءً للضرر الذى يلحقها، كما عرضت لبيان عِدَّة المُطَلَّقَة وما يجب لها من النفقة والسكن. وفى سورة «الممتحنة» بَيَّنَ حُكْمَ النساء المهاجرات من بلاد الأعداء إلى بلاد المسلمين، وأن على الرسول ﷺ أن يأخذ عليهن المبايعة كما أخذها على الرجال. وفى سورة «التحريم» أوضح أن مسئولية المرأة عن نفسها مسئولية مستقلة عن الرجل، وأن صلاحها يعود عليها هى، والفساد منها ضَرَرُهُ عليها. ومن خلال الآيات يتبيَّن أن الإسلام منحها حرية الاجتماع، وشهود الصلوات، ولها كذلك حرية إبداء الرأى، وحرية العمل والكسب، وفى حالةٍ راعَى مصلحتها، مُقَدِّراً إياها باعتبارها إنساناً كاملَ الأهلية، ولكنه راعَى ظروفها فى أمور تحتاج إلى اليقظة الدائمة، والحالة النفسية المستقرة، فراعى ما يعتريها شهرياً ويُسبِّب لها حالة من القلق والشعور بالضيق، فراعَى حالتها وخفَّفَ عنها.

الإسلام أنصف المرأة:

لقد أنصف الإسلام المرأة فى شتى أمور الحياة، وفى الميراث أيضاً. لقد منحها الإسلام نصف ما للرجل فى الميراث، لأن الرجل هو الذى ينفق عليها ويدفعُ لها الصَّداق، ويعدّ لها منزل الزوجية، وهى غير مُكَلَّفة بشىء، حتى ولو

كانت غنية، فالنفقة على الرجل، لهذا راعَى الإسلام هذا الجانب وجعلها على النصف فى الميراث، والذين أخذوا هذا المبدأ وبدأوا يشنِّعون على الإسلام ويقولون بأنه ظلمها فى هذا الموقف نقول لهم رويدكم يا هؤلاء، إنكم تعلمون تماماً أن الإسلام حيتما عَمَّ نوره كانت المرأة محرومةً من الميراث عند بعض القبائل، وأحياناً تُحرم الزوجة والبنت، كما كان يفعل اليهود، فالمرأة كانت هى نفسها تُورث كالمتاع، فلما جاء الإسلام أنصفها، لأنها مخلوق كالرجل تماماً، لها كيانها وحقوقها، ثم راعَى الظروف الاجتماعية لها، ومن تحقيق العدل أن يقيم التوازن بينها وبين الرجل على أُسس الإنصاف والعدل وعدم الغبن، فوضع قاعدة النصف فى الميراث، لأن الرجل هو الذى يتولى الإنفاق عليها وهى غير مسئولة، فكان من العدل والإحسان إلى المرأة أن لها نصف ما للرجل، لأنه هو الذى يتحمل كل التبعات المالية، وهى غير مُطالَبة بشىء، فكان من العدل أن يتم ذلك تحقيقاً للعدالة.

إن الذين يتصايحون ويعتبرون هذا الوضع فيه إجحاف للمرأة نقول لهم: لِمَ لَمْ تتحدثوا عن حِرْمانها منه هى والأطفال قبل الإسلام؟ وإن القوانين والشرائع القديمة حرمتهما منه أيضاً لأنهما لا يُجيدان الكَرَّ والفَرَّ وركوب الخيل، ومُنازَلة الأعداء.. إنكَ لو سألتَ المرأة العاقلة الآن عن ذلك لقالت لك: إن نصيبى فى الميراث شىء عظيم، لأننى غير مسئولة عن أى نفقة على الأسرة وفَتْح بيتِ الأبِ، ولا أتحمل المصاريف بعد وفاته، هذا بالإضافة إلى ما يقدمه الزوج لِى من صَدَاقٍ إلى غير ذلك، لأن هذه المصاريف تتكلف أكثر مما يأخذ الرجل من الميراث.

إن هذا الموقف من الإسلام حقق للمرأة الخير الكثير، وحقق العدل والإنصاف لها. إن الشرع بهذا أقام التوازن بين جناحى المجتمع، حتى لا يكون هناك غبن لأحد على حساب الآخر، لأنه كان من سُنن العرب أن النساء لا يَئُول إليهن من ميراث الرجال شىء، وكان من العرف السائد عندهم أنه: «لا يرثنا إلَّا مَنْ يحمل السلاح ويحمى البيضة»[1]، فإذا مات الرجل ورثه ابنه، فإن لم يكن ولد له

---

(١) بيضة القوم: حَوْزَتُهم وحِمَاهُم.

ذكر فأقرب مَنْ وُجِدَ من أوليائه ـ أباً أو أخاً أو عمًّا ـ ويضم الوارث بنات المتوفى ونساءَه إليه مع المال، ويتصرف فيهن كما يتصرف فى أى متاع، فأية امرأة هذه التى تُنقَل إلى بيت عمها أو خالها وقد صفرت يدها من مال أبيها بعدما كانت تتمتع فى العز فتصبح ولا شىء لها؟! لذلك ظَهَر بِرُّ النبى محمد ﷺ بالفتاة، ورحمته بها، وعطفه عليها، ويتجلى ذلك فيما رواه البخارى عن سعد بن أبي وقاص الذى قال:

«مرضتُ بمكَّة مرضاً أشرفتُ فيه على الموت، فأتانى النبىﷺ يعودنى، فقلت: يا رسول الله، إنّ لى مالاً كثيراً وليس يرثنى إلا ابنتى، أفأتصدق بثلثى مالى؟ قال: «لا». قلت: فالشطر؟ قال: «لا». قلت: الثلث؟ قال: «الثلث كثير، إنك إنْ تَذَرْ ورثَتَكَ أغنياء خير من أن تتركهم عالةً يتكفَّفُون الناس، وإنك لن تنفق نفقة إلا أُجِرْتَ عليها، حتى اللقمة ترفعها إلى فِيّ امرأتك»».

ثم تأمل ما قاله الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾[1]. فما تأخذه المرأة يكون لها فى يدها خاصة.

شهادة المرأة:

شهادة الرجل وحده تعدل شهادة امرأتين، فكما أنها على النصف فى الميراث هى كذلك على النصف فى الشهادة، وهذا المبدأ الإلٰهى وضعه فى التشريع الحكيم الخبير، الذى هو أعْرَفُ بطبائع وتكوين خَلْقِهِ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[2]، وإلى هذا المبدأ أشار الحق سبحانه فى قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[3].

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الملك.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٨٢.

إن أعداء الإسلام أخذوا يشنّعون على الإسلام زاعمين أنه غبن المرأة، وأنه جعلها على النصف من الرجل فى شيء يتعلق بكيانها الشخصى. ونردّ على هؤلاء ونقول: اقرأوا التشريع الإلٰهى لتفهموا التوجيه الإلٰهى، وافهموا النص الذى يقول: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾. إن الإسلام راعَى الظروف الخاصة للمرأة بتكوينها الجسمانى وما يصيبها من هزات نفسية، فيتتابها إرهاق حسّى، وتعب جسدى بسبب الدورة الشهرية، وحالة الحَمْل، والرضاعة، وهذا أمر كَتَبَهُ الله على بنات حواء ولا دَخْلَ لها فى شيء من ذلك، وليس هناك من يستطيع أن يُغَيِّرَ خَلْقَ الله ولا يُعَدِّل، لأن تكوين المرأة وطبيعتها جُبِلَتا على ذلك، وما هى فيه سعيدة به، لأنها تشعر بأنوثتها وتعتز بتكوينها الجسدى، هذا علاوة على العمل المنزلى ورعاية الأولاد، وتصريف أمورهم ومتابعتهم، وقد يكون لها مال تقوم على تصريفه، وهى بطبيعتها سريعة التقلب من سيطرة العاطفة، وهذا أمر طبيعى راجع إلى أصل خلقتها وتكوينها الفطرى، وتلك مشيئة الله من أصل التكوين والنشأة، والمرأة لا يد لها فى هذا، وقد كانت بعض الدول تعتبر ذلك نقيصة فتحطُّ من قدرها، كما جاء فى القانون الرومانى: «أن المرأة ليست أهلًا للتصرف مُدَّةَ حياتها»، وكما يقول العلّامة «بلينون»: «إن السند التجارى الموقَّع من المرأة غير التاجرة لا يساوى إلا وعداً مجرداً، ولا ينتج ما يترتب عليه لو صدر من الرجل». والقانون الفرنسى ينص على: «أن المرأة ليست أهلًا للتعاقد بدون رضا زوجها وإجازته»! هذه كانت قوانين الدول المتحضرة تجاه المرأة، وهذه أقوال رجال التحضُّر كما يزعمون، ثم يعيبون على الإسلام الذى سَمَا بالمرأة وكَرَّمَها وراعَى ظروفها التكوينية وما جُبِلَتْ عليه، ومنحها حق التصرف مع مقتضى الحال، فأيهما أحسن وأفضل؟

المرأة فى ظل التشريع الإسلامى:

لقد أصبح للمرأة فى الإسلام وجود على مسرح الحياة تؤدى فيه دورها بكفاءة واقتدار، ولها شخصيتها، مع مراعاة حالتها الجسدية وظروفها النفسية، وما

تتعرض له، وتلك المراعاة تتم فى إطار عظيم وتشريع ينسجم مع الخصائص النفسية والجسدية.

هذا وقد حظيت المرأة فى ظل التشريع الإسلامى بالكرامة والعزة، لذلك أسهمت فى نشر العِلم والمعرفة، وامتازت بالصِّدْق فى العِلْم، والأمانة فى الرواية، والحِيدة عن مواقع التُّهَم. واسمع معى ما قاله الحافظ الذهبى (المتوفى عام ٧٤٨ هـ)، وهو من ثقات المسلمين، وعظيم من عظماء المُحَدِّثين، أَلَّفَ كتابه «ميزان الاعتدال» فى نقد رجال الحديث، خَرَّجَ فيه أربعة آلاف منهم من المُحَدِّثين، ثم قال: «وما علمتُ من النساء من اتُّهمت، ولا مَنْ تركوها»[١]. والحافظ ابن عساكر (المتوفى عام ٥٩١ هـ) كان من أوثق رواة الحديث، حتى لقَّبُوه بحافظ الأُمَّة، كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء[٢]. والمؤلِّف محمد بن سعد الذى كتب «الطبقات الكبرى» خصص جزءاً لراويات الحديث من النساء، أتى فيه بأكثر من سبعمائة امرأة رَوَيْنَ عن رسول الله ﷺ. وكانت زوجات النبى ﷺ قسيمات السيدة عائشة رضى الله عنهن جميعاً فى إذاعة العِلْم ونشر تعاليم الدين بين النساء، وكانت عائشة رضى الله عنها تجيد القراءة، والسيدة حفصة رضى الله عنها تُحسن الكتابة، وقد تعلمت على يد الشفاء بنت عبد اللّه بن شمس القرشية[٣].

وكان الإمام علىّ كرَّم الله وجهه، وهو مَنْ هو، يتلقى الحديث على مولاةٍ لرسول الله ﷺ، هى ميمونة بنت سعد رضى الله عنها[٤].

ولم يقف الأمر عند رواية الحديث فقط، فقد كان لهن فى الأدب شأن، فقد حَدَّثُوا أن «عائشة بنت طلحة» وفدت على هشام بن عبد الملك فقال لها: ما أوفدكِ؟ قالت: حَبَستِ السماءُ المطرَ ومنعَ السلطانُ الحقَّ، فقال لها: إنى سأُعَرِّفُهُ

---

(١) «ميزان الاعتدال» للذهبي، ج ٣، ص٣٩٥.

(٢) انظر كتاب «طبقات الشافعية» للسبكى، ج ٤، ص٢٧٣.

(٣) انظر كتاب «الإصابة»، ج ٧، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) انظر كتاب «الإصابة»، ج ٧، ص ١٧٣.

حَقَّكِ. ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية، فقال: إن عائشة عندى فاسمروا الليلة عندى، فحضروا، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلعَ نجمٌ ولا أغار إلا سَمَّتْهُ، فقال لها هشام: أمَّا الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لَكِ؟ فقالت: أخذتُها عن خالتى عائشة. فأمر بها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة[1].

وإنَّا نُورد الآن قصة لطيفة يتبين منها مَدَى ما بلغت المرأة من رواية الشعر والوقوف على مراميه، مع سرعة البديهة، ودقة فطنة المرأة وحضور جوابها، وأخذها المآخذ على خصمها، فقد حَدَّثُوا أن رجلًا من العرب نزل بامرأة من بنى عامر، فأكرمته وأحسنت قِرَاه، فلما هَمَّ بالرحيل أنشد بيتاً فيه هجاء لبنى عامر «قبيلتها»، قال:

لعمرك ما تبلى سرابيلُ عامرٍ من اللُّؤْمِ ما دامَتْ عليها جُلودُها

فسمعته المرأة فقالت لجاريتها: قولى له: ألم نُحسن إليك؟ قال: نعم. قالت: هل صَدَرَ منَّا تقصيرٌ فى أداء واجب الضيافة؟ قال: لا. قالت: فما حَمَلَكَ على ترديد البيت؟ قال: جَرَى على لسانى. فخرجتْ إليه جارية من بعض الأخبية فحدَّثته حتى أَنِسَ واطمأنَّ، ثم قالت له: مِمَّنْ أنت يا ابن العم؟ قال: رَجُلٌ من تميم. قالت: أتعرف الذى يقول:

تميـم بطرق اللـؤم أهْـدَى مـن القَطَـا ولو سلكتْ سُبُلَ المكارمِ ضَلَّتِ[2]
أرَى الليــل يجلــوه النهــار ولا أرى خــلال المخــازى عــن تميــمٍ تجلَّــتِ

قال: والله ما أنا من تميم. قالت: ما أقبح الكَذِبَ بأهله، فَمِمَّنْ أنت؟ قال: من بنى عِجْل، قالت: أتعرف القائل:

أرى الناس يعطون الجزيلَ وإنما عطاء بنى عجلٍ ثلاثٌ وأرْبَعُ
إذا مـات عِجْلِيٌّ بـأرض فـإنمـا يُخَـطُّ لـه فيهـا ذراعٌ وإصْبَـعُ

(١) انظر كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى، ج ١٠، ص ٥٧.

(٢) القطا: نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء، ويتخذ أفْحُوصَه (عُشَّه) من الأرض، ويطير جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، ثم يعود إلى عشّه دون أن يُضلَّه. ومن المثل: أهْدَى من قطاة.

فقال: والله ما أنا من بني عجل. قالت: فممن؟ قال: من بنى عَبْس، قالت: أتعرف القائل:

إذا عبسية ولدت غلاماً   فبشرها بلؤمٍ مُسْتَفَاد

قال: والله ما أنا من بني عبس. قالت: فممن؟ قال: من بجيلة. قالت: أتعرف القائل:

سألنا عن بَجِيلَة حين جاءت   تخبر أين قَرَّ بها القرارُ
فما تدرى بجيلة إذ سألنا   أَقَحْطَان أبوها أم نِزَارُ
فقد وقعت بجيلة بين بين   وقد خُلِعَتْ كما خُلِعَ العِذَارُ

فقال: لا والله ما أنا من بجيلة. قالت: فممن؟ قال: من بنى نُمَيْر. قالت: أتعرف القائل:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ   فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

فقال: والله ما أنا من نُمَيْر. قالت: فممن؟ قال: من بنى باهِلَة. قالت: أتعرف القائل:

إذا نص الكرام إلى المعالي   تَنَحَّى الباهِلِيُّ عن الزِّحامِ
إذا ولدتْ حليلةُ باهليٍّ   غُلاماً زِيدَ فى عدد اللئامِ
ولو كان الخليفة باهليًّا   لَقَصَّرَ عن مُساماةِ الكِرَامِ
وعِرْضُ الباهلى وإنْ توفى   عليه مثل منديل الطعامِ

فقال: لا والله ما أنا من باهلة. قالت: فممن؟ قال: من خُزَاعة. قالت: أتعرف القائل:

إذا فَخَرَتْ خُزاعة فى ندى   وَجَدْنا فَخْرَها شُرْبَ الخُمورِ
وباعت كعبة الرحمٰن جهلًا   بِزِقٍّ بئس مفتخر الفخورِ

فقال: والله ما أنا من خُزاعة. قالت: فممن؟ قال: من بنى أُمَيَّة. قالت: أتعرف القائل:

وَهَى مِنْ أُمَيَّةَ بُنيانها   فهانَ على الناس فُقْدانها
وكانت أميةُ فيما مضى   جَرِيًّا على الله سُلطانها

فـلا آل حَـرْبٍ أطـاعِـوا الإلٰـه   ولــم يَتَّــقِ الله مَــرْوانُهــا

فقال: والله ما أنا من أمية. قالت: فممن؟ قال: هَمَدان. قالت: أتعرف القائل:

إذا هَمَـدانُ دارَتْ يـومَ حـربٍ   رُحاها فوق هاماتِ الرِّجالِ
رأيتهمــو يحثُّـون المطــايــا   سـراعـاً هـاربيـن مـن القتـال

قال: والله ما أنا من همدان. قالت: فممن؟ قال: من النَّخْع. قالت: أتعرف القائل:

إذا النجع اللِّئام عَـدُوا جميعـاً   تدكدكتِ الجبالُ من الزحامِ
ومـا تُغْنِـى إذا صَـدَقَـتْ فتيـلًا   ولا هى فى الصميم من الكرامِ

قال: والله ما أنا من النجع. قالت: فممن؟ قال: من لَخْم. قالت: أتعرف القائل:

إذا ما اجتبى قومٌ لفضلٍ قديمهو   تباعدَ فخر الجُودِ عن لخم أجمعا

فقال: لا والله ما أنا من لخم. قالت: فممن؟ قال: من كلب. قالت: أتعرف القائل:

فلا تقربن كلباً ولا بابَ دارها   ولا يطمعن سارٍ ير ضَوْءَ نارِها

فقال: لا والله ما أنا من كلب. قالت: فممن؟ قال: من سليم. قالت: أتعرف القائل:

إذا مـا سليـم جئتهـا فـى مُلِمَّـةٍ   رجعت كما قد جئت خزيانَ نادِما

فقال: لا والله ما أنا من سليم. قالت: فممن؟ قال: من الموالى. قالت: أتعرف القائل:

ألا من أراد اللؤم والفحش والخَنَا   فعنـد المـوالـى الجيـد والكتفـان

فقال: لا والله ما أنا من الموالى. قالت: فممن؟ قال: رجل من الشيطان. قالت: أتعرف القائل:

إلا يـا عبـاد الله هـذا عَـدُوُّكـم   وذَا ابْنُ عدوِّ الله إبليس خاسئا

حتى إذا ضاقت بالرجل مَناسِبُهُ، وأَعْيَتْ عليه مذاهبه، قال لها: الله الله، أقيليني العثرةَ فوالله ما ابتليت بمثلكِ قط. ثم خرج خاسئاً وهو حسير[1].

لقد كان للمرأة المسلمة مواقف فى الأدب نضرت جوانبه، وزكت فنونه، ورقَّتْ مشاربه، بما أثمرت قريحتها، وانحسر عنه لبّها من براعة ورجاحة وقوة عارضة، فقد استمدت وحى البلاغة وسحر البيان من صبيب قلبها، وخطرات سرائرها، بعكس الرجل الذى استمد وحى بلاغته من دلال المرأة وسحرها.. وهل رأيت شاعراً مِمَّن طار ذكرهم وذاع صيتهم إلاَّ وهو يستمد خواطر شعره من المرأة يتغزل بها فى مطلع القصيد.

وإذا كانت المرأة قد نبغت فى جوانب الأدب والتشريع فقد أخذت بنصيب وافر أيضاً من كل العلوم، وكان لها فى الطب والتطبيب دور برعت فيه كذلك، فكانت تأسو الجراح، وتجبر العظام. حَدَّثَ صاحب كتاب طبقات الأطباء أنه كانه ببغداد وقرطبة وما سواهما من المُدُن سيداتٌ كثيرات لهن دور بارز فى علاج الأجسام، ما ظَهَرَ منها وما بَطَن.

كذلك نبغت بعض النساء فى علاج العيون وإجراء العمليات الجراحية. نعم، لقد تصدت المرأة لفنون العلم وشئون الأدب، وأمعنت فى كل ذلك إمعاناً أعيا على الرجل دَركه فى مواطن كثيرة.. إن المرأة لها من دِقَّة الحس وقوة العاطفة وبُعْد الخيال فوق ما للرجل، فهى لا تبرح الدهر بين خاطر متوثب ووجدان متأثر، لا تكاد تسمع خبراً أو تلمح منظراً أو تطيف بها ذكرى حتى ينال ذلك من أعماق نفسها وأسارير وجهها وشئون عينيها، فلا تزال برغم ذلك بين دم يتصعد ثم يتحدر، وقلب يثب ثم يطمئن، ووجه يَرْبَدُّ ثم يشرق، وعبرة تطفو ثم تنحسر، وكل ذلك يبقى فى نفسها أثراً لا يُمحى، ذلك خُلُق المرأة، وتلك شيمتها: فِطْرَةٌ طيبة، وسريرة صافية، وقلب دائم الخفقان، فإن وَجَدَتْ تلك الطبائع مَنْ يتعاهدها

(١) «مروج الذهب» للمسعودى، ج ٢، ص ١٧٥ ـ ١٨٠، و«طبقات الشافعية» للسبكى، ج ١، ص ١٤٢ ـ ١٤٦.

ويصلح نهجها ويزيل العوائق من أمامها ويدفع بها إلى الكمال ويوجِّهها إلى الخير، يزيد عطاؤها وتبذل فى سبيل ذلك الكثير. أما إذا مُنيت بمن يُزَيِّنُ لها الشر ويُمَوِّه لها الباطل ويُبعدها عن الخير ويدفع بها إلى طريق الفساد قضاءً لنهمة طارئة، ومَجْلَبة لعرضٍ زائل، انعكست آيتها، وانتكست حالتها، وأصبحت مصدر داءٍ لا دواءَ له، فأى طُرق التربية أحسن لحياة المجتمعات وأحق بتوجيه المرأة إليها؟ إن الدين الإسلامى وحده هو الكفيل بذلك التوجيه، فهى بما لها من سلطان العاطفة وبُعْد النظر والتدقيق تتمثل عظمة الله وتستشعر حُبَّه، وفى الدين أشياء لا تصدقها العقول إلا إذا رَسَخَتْ حكمتها ورجحت كفَّتها فى وجدان الإنسان، والمرأة أقدر على ذلك، لما لها من عاطفة نَزَّاعة وحِسٍّ ثائر.

إنّ الإسلام الذى رفع شأن المرأة ما كان لينتقصَ قَدْرَها، أو يحطَّ من شأنها، فذلك أمر لم يقم عليه دليل، وإنما الإسلام حافظَ على كيان المرأة، ووفَّى لها حقها، وراعَى ظرفها الوضْعى الذى خُلقت عليه، فلا عليها من حَرَجٍ وهى تفتخر بأنها مسلمة وملتزمة بما جاء به من تشريع يتفق مع ما جُبلت عليه، فالذى خلقَها أرحمُ بها، لذلك خَفَّفَ عنها فى كثير من الحالات، فحَطَّ عنها الصلاة أيام الدورة، ولم تُؤمر بقضاء الصلاة عن تلك المدة، كما أوجب عليها الفطر فى الصيام عندما تكون معذورة، وتقضى الأيام التى أفطرتها، لأن الصيام خير وبركة، ويجلب الصحة للإنسان. فهل يدرك ذلك من يتشدَّق بالكلام ويتطاول على القِيَم الدينية؟.

إنّ الخالقِ الرحيم راعَى خصائصها النفسية وحالتها الجسدية، وما تشعر به من تقلبات نفسية، وما ينتابها من صداع وإرهاق، لذلك خفف عنها فى تحمُّل المسؤولية وجعل لها الصداق والنفقة، وخَفَّفَ عنها فى الشهادة، وقال: ﴿ أَن تَضِلَّ﴾ يعنى: أن تَنْسَى، فالنسيان أمر وارد عند المُتْعَب المُجْهَد، فما بالك إذا كان فوق ذلك عمل المنزل ومسئولية الأولاد؟ ألا لله الخلق والأمر، وهو الرحمٰن الرحيم.

المرأة المسترجلة:

ولعل من المفيد أن أنقل هنا ما كتبه الأستاذ أنيس منصور فى عموده بجريدة الأهرام[1]، تحت عنوان «مواقف» يقول فيه:

«ما الذى يجعل امرأة تنجح وتتفوق على الرجال؟ الجواب فى دراسة لعالم النفس المعروف اشتراوس لوبك: إنها تستعير أساليب الرجال، ومِنْ أهمِّ أساليب الرجال «العدوان» و«الغرور» أو «الغرور العنيف» يعنى: الغطرسة! فقد تتبّع الأستاذ اشتراوس حياة ستين من سيدات الأعمال فى أمريكا، ولاحَظَ أن المرأة وسط الرجال تحاول أن تكون رجلًا، أو سيدة (مسترجلة)، ويتسامَى إحساسها الأنثوى فتكون جنساً ثالثاً، أى امرأة إلا قليلًا، ورجلًا إلا كثيراً.

ويضرب لذلك مثلًا بملكة مصر «حتشبسوت» التى حكمت ٢١ سنة، فإنها كانت ترتدى ملابس الرجال، وتضع الباروكة واللحية، ويقال: إنها كانت تجعل صوتها غليظاً.

والفتاة الفرنسية الشهيدة «جان دارك» ارتدت الدِّرْعَ الحديدية، وحلقت رأسها، وراحت تصرخ تطلب الحرية، وكره الرجال أن يجدوها بينهم وأمامهم فأحرقوها.

وعازف السكسفون «بيلى بيتون» الذى توفى سنة ١٩٦٩، وكان بارعاً وفريداً فى فنه، وعند وفاته اكتشفوا أنه فتاة!

وكثير من الباباوات عند الوفاة اكتُشفوا أنهم فتيات، وأديبة فرنسا «جورج صاند» كانت ترتدى ملابس الرجال وتفتك بالرجال أيضاً، بعباقرة زمانها من الموسيقيين والشعراء.

ويَرَى أن السيدة مرجريت تاتشر تُعَدُّ نموذجاً للمرأة الحديدية، أى الحديدية كالرجال، فهى عنيفة، عنيدة، تشتم الرجال فى مجلس الوزراء، وتتَّهمهم بأنهم مُدَلَّلُون أو «مائعون».

---

(١) الصادرة بتاريخ ٩/١٢/٩٣.

والرجال لا يحبون هذا الطراز من النساء، أى المرأة التى تتربَّص وتتحفَّز وتنتظر الفرصة، ويَتَّحِدُونَ ضدها للقضاء عليها.

والسيدة الأمريكية التى قطعت عضواً من جسم زوجها كان وراءها عدد كبير من السيدات السعيدات جدًّا بهذا الانتقام.

وفى مصر لم يسعد بالسيدات اللائى قَطَّعْنَ أزواجهن ووضَعْنَهُمْ فى أكياس نايلون إلا د. فتحى سرور، أستاذ القانون الجنائى، فقد كان فى استطاعته أن يبرِّئ هؤلاء السَّفَّاحات، وبنص القانون، ولكن ليس عنده وقت!!

ومن أجمل الأفلام الأمريكية الحديثة فيلم «أغنية جو الصغير» عن فتاة حملت طفلًا سِفَاحاً فهربت إلى رعاة البقرة، وعاشت بينهم «رجلًا» بارعاً فى ركوب الخيل واصطياد الأبقار، وأهم ما فى الفيلم هو العذاب الذى تعانيه المرأة حتى لا تفتضح أنوثتها، وعندما شاهدت البطلة هذا الفيلم راحت تبكى عندما رأتهم يقصُّون شعرها.. إنها أنثى، ورجولتها مصطنعة». أ.هـ.

الحجـاب

المرأة هى حجر الزاوية فى الأسرة الإنسانية، بل هى القالب الذى تتشكل منه شخصية المجتمع، والممثل اللاعب فى حياة الرجل من وراء الستار، ذلك لأنها نفثت سحر الجنة الذى اقتبسته من أنفاس الحُور العين فى جو الإنسانية فاستنشقه الرجل حتى أصبح لا يستطيع أن ينتزع عن فكره شخصيتها التى لا تفارقه فى أطوار حياته، بل شغلت باله، لأنها اللوحة الأخيرة للجمال الفنى فى بناء الإنسانية، فقد خلق الله الرجل أولاً ثم خُلِقَتْ هى منه وبعده، ثم رآها وهى تقطف من فلّ وياسمين الجنة ما تصنع به عقداً تُزَيِّن به جِيدَها الأغيد، ثم وهى تعصر من زهور الجنان عطراً من الورد والنرجس تمسح بها وجهها المقمر، فإذا خطوط وردية وعسجدية فى وجنتيها، وإذا السحر الحلال ينبعث من عينيها، واللفظ العذب يتناثر تناثر اللؤلؤ من بين شفتيها، وإذا بالوجود كله يخطو فى خطواتها وهى تسير يعلوها خَفْر ودلال أحياناً، وحياء بمَكْرٍ فى بعض الأحايين، من هنا استطاعت أن تكون أمهرَ من الرجل فى مواقف سجَّلها لها التاريخ، ولعل أشهرهن «بلقيس» تلك الملكة التى حكمت الرعية وسادت عليهم بحُسْن التصرف، لذلك أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

كان هذا حديث نفسي، والليل قد غطّى الكون وناء بِكَلْكَلِه، وأنا فى شوق لمجىء الصَّحْب الكرام، حيث الحديث يحلو ويتشعب، وما هى إلا لحظات حتى ظهرت كوكبة منهم، فتغير الحال وتوقف حديث النفس.

بدأ الحديث فى نواحٍ شتى، حتى قال أحد الجالسين: نأمل أن يكون موضوع الحجاب حديثنا فى تلك الليلة، لأننا أصبحنا نرى فى مجتمعنا أشكالاً شتى للحجاب، فأى الفِرَق على حق؟ حتى نكون على بيّنة من الأمر.

قلت: المرأة العربية كانت تخوض غمار الحياة، ولها مواقف بطولية، حيث كانت ترسل الكلمة فتعنو لها الجباة، وتنخلع من هولها القلوب، ولا يُضيرها أن تخرج سافِرَةً إلى الرجال تحت ظلال السِّلْم أو بين لوافح الحرب، وليس بضائرها أن تتوارى عن العيون أو تُسْدَلُ عليها الحُجُب. فلما بُعِثَ سيدنا محمد ﷺ واستقر الإسلام في نفوس الأصحاب، وبدأ التشريعُ يأخذ مسارَه، والمسلمون يُطَبِّقُونَ على أنفسهم ما يَنْزِلُ به الوحي ولو خالف هواهم، وكان مما نَزَلَ قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] فبدأت تتَّضح معالمُ محددة، ثم تتابع الوحي ونزل قول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾[2].

الحجاب قبل الإسلام:

ولا بد من استعراض هذا الأمر قبل الإسلام حتى تتضح الصورة كاملة أمامنا.

كانت المرأة قبل الإسلام تجلس إلى الرجال وتُجاذبهم الحديث سافرةً غير محتشمة، وكانوا يسمُّونها «البرْزَة» كما كان هناك مَنْ تحتشم بحيث تُرخِي قناعها إذا خرجت من بيتها، فلا تطرح ما احتشمت به حتى تعود إلى بيتها، وكانت تغشى مجالس الرجال، وتطرق أنديتهم، وتخطب في محافلهم ومشاهدهم، لا في الخطب الملم والأمر المهم فحسب، بل في كل شيء. ونذكر هنا سوق عكاظ، وهو أحفل مجامع العرب وأجمع مواسمهم، وكانت النساء يأتين إليه من قريب أو

(١) سورة الأحزاب.

(٢) سورة النور، من الآية: ٣١.

بعيد يُزاحِمْنَ الرجال بالمناكب فى كل ما قصدوا له واحتفلوا به، فبينما كُنْتَ ترى امرأة تناضل الرجل فى حَوْمَة القول، إذا بأخرى تخطب فى الناس. ولقد ذكروا أن هند بنت عتبة والخنساء بنت عمرو بن الشريد تلاقتا هناك فتذاكرتا مصيبتيهما، وكانت الأولى قد قُتِلَ أبوها وعمها وأخوها يوم بدر، ومات عن الثانية أبوها وأخوها، وادَّعَت كل واحدة أنها الأكثرُ مصاباً، والأحَرُّ كبداً من أختها، ولكى تسوق كل واحدة دليلها جاءت بأبرع الشعر وأروعه فى وصف مُصابِها، وجهد ما فعل بها وبقومها. ثم انصرفتا وقد أجهش الناس بالبكاء، وتملَّكهم الإعجاب(١).

ويقول الأصمعى: «قد تلقى المرأة خِمارَها لحُسْنها وهى على عِفَّة، ومنهن التى لا تكاد تفارق قناعها إذا انحسرت عن دارها إمَّا لاحتشامها واستحيائها، وإمَّا لكَلَفٍ أصاب وجهها، فهى تجهد أن تستره».

ومن أمثال العرب: «كذات الشيب ليس لها خِمار»(٢)، فهم يرون الخِمارَ خاص بذوات الشَّيْب فقط حتى تُوارِى بياضَ شعرها.

ومنها قولهم: «تَرَكَ الخِداعَ مَنْ كَشَفَ القِناعَ»، يريدون أن الفتاة لا تستر وجهها إلا لشىء سيِّئ فيه.

وقولهم: «إن العَوانَ لا تعلم الخمرة»، العوان التى ناهزت الأربعين، والخمرة الالتفاعُ بالخِمار، أى: إن التى بلغت الأربعين لا تُحسن التقنُّع، لأنها لم تتعوَّد عليه وهى شابة فى ريعان الصبا، والطَّبْعُ يغلب التطبُّع.

وجاء فى كتاب «محاضرات الأدباء»(٣): «أن رجلًا من قبيلة أسدٍ قبيح الوجه خَطَبَ امرأة دميمة، قبيحة الوجه، فقيل لها: إنه قبيحٌ لذلك تَعَمَّمَ لكِ. فقالت: إنْ كان قد تَعَمَّمَ لنا فإنَّا قد تَبَرْقَعْنا له». ومن هنا جاء المَثَلُ: «تَبَرْقَعْ وَانْظُرْ»، فقد كان بعض النسوة يُغَطِّينَ وجوههن وتظهر عيونهن من تحت البُرْقُع فتكشف عن

(١) عن كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

(٢) الخِمار: كل ما سَتَرَ، ومنه خِمارُ المرأة، وهو ثوب تُغَطِّى به رأسها [المعجم الوسيط، ج ١، ص ٢٥٥ ـ مادة: خَمَرَ].

(٣) المجلد الثاني ـ ص ٤٩.

عيون المها، فجاء المَثَلُ يرشد إلى النظر فى مكان معين، وهذا غير ما فيها، وكانت المرأة تفضل ملابسها مكشوفة الصدر والظهر، فيرى جسمها إذا أقبلت أو أدبرت، فاتخذت أشياءَ تستر بها ما أمكن منها، حيث تغطى الظَّهْرَ أو الصَّدر، ومن هذ الأشياء:

١ ـ الخِمار أو القناع: وهما شُقَّة توضع على الرأس ثم تُشَدُّ على جزء من الوجه.

٢ ـ البُرْقُع: غطاءُ سائرِ الوجه، وله عينان نجلاوان على عينى المرأة، وثقوب أخرى، لتُظهر شيئاً من الوجه.

٣ ـ النَّصِيف: ثوب رقيق تتجلل به المرأة فوق ثيابها، وسُمِّى بالنَّصيف لأنه يحجز أبصار الناس عنها، وفيه يقول رسول الله ﷺ فى وصف الحور العين: «. . . وَلَنصِيفُ إحداهن خَيْرٌ من الدنيا وما فيها».

٤ ـ اللثام: أو النقاب، قناع للوجه من طرف الأنف إلى ما دونه.

٥ ـ القمرة: وهو منديل الرأس تستعمله الحُرَّة فقط.

٦ ـ الدِّرْع: جلبابٌ شاملٌ يُحيط بالدِّثار.

٧ ـ النِّطاق: هو ثوب تشده المرأة إلى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل.

٨ ـ المِعْطَف: رداء تُلقيه على عِطْفَيْها وتُرسله على جسمها.

٩ ـ المِرْط: وهى ملاءة ذات شقين تتلَفَّعَ بها المرأة وتأْتَزِرُ بها.

١٠ ـ اللِّفاعُ: وهو رداء تلتفعُ به، وهو يشبه «الشال» الآن.

وغير ذلك من أنواع الملابس كثير. كانت المرأة تعتنى بملابسها لتلفت الأنظار إليها، لفرط جمالها وبديع محاسنها، وقد لفت القرآن نظرنا لهذا الموضوع عندما قال: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[١] فنبَّه على أن التنشئة فى الحِلْيَة شعار الإناث وموطن الكناية بهن.

---

(١) سورة الزخرف.

حُلِيّ المرأة العربية:

كانت المرأة تتحلى ـ علاوة على الثياب ـ بأشياء، منها:

١ ـ الخاتَم: وقد يكون له فص أو ليس به.

٢ ـ السِّوار: حلية من الذهب مستديرة تُلْبَسُ فى المعصم أو الزَّند، وهو من خصائص الحرائر.

٣ ـ الخَلْخال: حلية كالسُّوار، ويطلق على ما له رنين.

٤ ـ الطَّوْق: حُلِيّ يحيط بالعنق.

٥ ـ القِلادة: وهى ما يُجْعَل حول العنق.

٦ ـ القُرْط: وهو ما عُلِّق أسفل شحمة الأذن.

٧ ـ التميمة: خَرَزَة تُعَلَّق فى عنق الصبى أو الصبية بها تعاويذ بِزَعْم دفع الآفات عنهن من الجن أو الإنس، وربما اتخذها النساء لتأليف قلوب الرجال.

روى ابن منظور أن امرأة قالت لزوجها: مُرَّ بى على بنى نَظَرَ ولا تمر بى على بنى نَقَرَى. أى: مُرَّ بى على الرجال الذين ينظرون إلىَّ، ولا تمر بى على اللواتى يَعِبْنَنِى ويُنَقِّرْنَ فى عِرْضي[1].

لذلك فنحن نقول بأن طرح النقاب كان هو الغالب على حالات النساء، حتى لقد غالى الفخر الرازى عندما قال: إن نساء العرب كُنَّ يخرجن مكشوفاتٍ مُتبذِّلات، سواء فى ذلك حرائرهن أو إماؤهن، فأُمِرْنَ فى الإسلام بلبس الأرْدِيَةِ وستر الرءوس.

حالات لا تهتم فيها المرأة بنفسها:

غير أن هناك حالات شاملة لم تكن المرأة لتهتم بالحجاب أو تُعنى بأمر نفسها وأهمها:

(١) في «لسان العرب»، ج٧، ص ٨٧.

١ ـ حالة الروع والفزع والهلع: فإذا أُصيبت المرأة بمصيبة أو أَلَمَّ بها ما يعكر الصفو، كحالة حريق، أو غَرَق عزيز، أو موت قريب، ففى هذه الحالات لا تهتم المرأة بالنقاب، ولا بحالة الاطمئنان على زيِّها وزينتها.

٢ ـ كذلك فى الأعياد والأعراس وبين مظاهر الزهو والفرح، كوصول غائب، أو زواج قريب، أو قدوم قائد أو شخص له مركزه المرموق، فكانت نساء الحى يخرجن سوافِرَ الوجوه، وقد ينتاب بعضهن النشوة فيرقصن ويُغنِّين بمآثر القوم، ويرسلن القول عذباً نديًا فى وصف من اجتمعن له أو احتلفن به.

٣ ـ كما أن نساء العرب كُنَّ يَخْتَمِرْنَ، فإذا التقت المرأة برجل جبان فى طريقها تطرح النقاب وتكشف عن وجهها ازدراءً به، وإيحاءً له بأنه ليس بالذى يحتشم منه، لخِسَّتِهِ ووَضاعَتِهِ.

٤ ـ كان بعض النسوة يلبسن درعاً من اللؤلؤ ويمشين به وسط الطريق بين الرجال، لأن الحجاب لم يكن معروفاً، فتبرجت المرأة كما يحلو لها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[1].

ونحن نؤكد على أن حجاب المرأة أو سفورها لم يكونا فى شىء من خُلُقها ولا شرفها، لأن المرأة قد تسفر ترفُّعاً وكبرياءً، وقد تحتجب دفعاً للريبة وسوء الظن، من ذلك ما كان يفعله «الساقطات» إذا مررن على الحرائر، فقد كُنَّ يرخين القناع حتى يسترن وجوههن. وقد كتب الحارث بن كعب فى وصيته لأولاده: يا بَنِيَّ، قد أتت عليَّ ستون ومائة سنة ما صافحتْ يميني يَدَ غادر، ولا اقتنعت بمصاحبة فاجر، ولا صبوة بابنة عم ولا كَنَّة[2]، ولا طرحت عندى مُومِسَةٌ قناعها.

ثياب المرأة العربية:

المرأة العربية لبست ضروباً من الثياب مختلفة الفنون والألوان، وكانت

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٣٣.

(٢) الكَنَّة: امرأة الابن أو الأخ.

مناسج اليمن والبحرين والشام والعراق تنتج العديد من الأقمشة مختلفة الألوان، كذلك كانت بلاد فارس وسواحل الهند تنتج من الأقمشة ما رَقَّ نسيجه، ودَقَّ خَيْطُه، أو كثف حَوْكه وضُوعفت حواشيه، ومنها ما كان وسطاً بين الحُمْرَة والبياض، والمفروق، وهو ما أُشْرِبَ بالزعفران.

نظرة إلى وسائل التجميل الحديثة:

ولعل من المفيد لنا أن نسوق بين يديك ما قالته المرأة، وهي أعرف بهذه الأشياء من غيرها، هي حرم الشيخ محمد رشيد رضا، التي تقول: «ولو أن المتبرجة تأملت بعين بصيرتها، ولو كان لها قلب يعي لوجدت أنها باصطناعها هذا الجمال المزوَّر ومبالغتها في التزيُّن لن تكسب في الحقيقة جمالاً ولا حسناً، بل إنها تمسخ وجهها، وتخفي ما حباها الله به من جمال فطري بقناع من الأصباغ الزاهية، التي تختلف وتشذّ عن الطبيعة، وهذا شيء ينبو عنه الذوق السليم، والمرأة لا تأبه لذلك، ولا تفطن لما صنعت بوجهها من التشويه والتقبيح، فَلِمَ هذه المبالغة المشوهة للخَلْق الذي جعله الله في أحسن تقويم؟! إن كل شيء زادَ عن حَدِّه انقلبَ إلى ضدّه، وإتقان الجمال إنما يكون بمحاكاة خَلْق الله سبحانه الذي أتقن كل شيء، وأحسن كل شيء خلقه، ولن يكون أحدٌ أبدعَ منه تصويراً، ولا أدقّ منه تجميلًا، ولا أحسن منه تنسيقاً، فهو الذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى».

إن نظرة موضوعية إلى وسائل التجميل الحديثة تؤكد للمرأة أنها تشارك الوسائل القديمة، بل زادت عليها مِمَّا فيه ضرر أكثر وعواقب وخيمة، ثم إن في ذلك تغريراً، وتدليساً، وغِشًّا، وخداعاً، ثم إن هذه الأشياء من صُنع وابتكار أعداء الأديان، ولا سيما الزينة المزوَّرة من أحمر وأزرق وغير ذلك، وقد نُهينا عن تقليد مَنْ يُخالفوننا في الدين والعادات والتقاليد.

إن المرأة التي تدهن نفسها بالأصباغ تجدها في الصيف إذا نزل العَرَق على وجهها أصبح وكأنه شوارع، أو كما يقولون: كالبلياتشو (المهرج)، وإذا نزل مطر

عليها فى الشارع أصبحت كذلك، فهى فى جميع الأحوال معرَّضة للضرر الظاهر والمرض النفسى، لأنها تشعر بنظرات الناس إليها باحتقار لهذا التشوُّه المُصْطَنع فتضطرب نفسيًّا، وتهتز عصبيًّا.

هذا فى الملبس والحُلِيِّ، وهناك أشياء تصنعها المرأة في نفسها لإظهار زينة أكثر، منها:

١ ـ الوشم: وهو غرز إبرة فى المكان المراد، كالكف، أو الشفة، أو المعصم، أو غير ذلك من أى مكان فى بدن المرأة، فإذا غرزت الإبر سال الدم، فتحشو هذا الموضع بالكُحْل. وفاعلة الوشم تُسَمَّى «واشِمَة»، والمفعول لها تسمَّى «مَوْشُومة»، وطالِبَتُه تسمَّى «مُسْتَوشِمَة».

٢ ـ النَّامِصَة: وهى التى تُزَجِّج الحواجب، أى: تُرَقِّقُها بأخذ شعرٍ منها.

٣ ـ المُتَنَمِّصَة: وهى التى تطلب فعل ذلك بها.

٤ ـ المُتَفَلِّجَة: وهى التى تجعل فُرْجَةً بين أسنانها ـ تبرد أسنانها بآلة خاصة لتفرج بين أسنانها: الثنايا والرباعيات ـ إظهاراً لصغر السن، وحُسْن الأسنان، وتجميل الوجه، وتسمى هذه العملية «الوَشْر».

٥ ـ الواصِلَة: هى التى تصل شعر المرأة الطبيعى بشعر آخر مستعار، كالباروكة أو الضفائر، والمستوصلة هى التى تطلب أن يُفْعَل بها ذلك، ويقال لها «مَوْصُولَة».

٦ ـ إطالة الأظافر وطلاؤها بمادة «المانكير».

٧ ـ طلاء العيون ورموشها.

٨ ـ أحمر الشفاه.

٩ ـ صبغ الشعر، وتغيير ألوانه من أسود إلى بنى، أو غير ذلك.

١٠ ـ الدهون والمساحيق، وهى معاجين زيتية، يُذاب فيها مركَّبات معادن ثقيلة مثل الرصاص والزئبق، وتدخل فى تركيباتها أكسيدات المشتقات البترولية.

١١ ـ الكعب العالى: وهو انتعال الأحذية ذات الكعب العالى المرتفع.

ولقد قرر الأطباء بأن كل هذه الأشياء تضر بالجلد، لأنها تمتص عن طريقه وتُحدث الالتهابات والحساسية، وتؤثر على الأنسجة المكوِّنة للدم والكبد والكلى، هذا فى الدهون، كالأحمر والمعاجين. وبالنسبة للعيون فإن طلاءها يُنتج تقرُّحات فى القرنية والالتهابات فى العينين بسبب الأجسام غير المعقَّمة، ومن ثَمَّ تتساقط الرموش، لذلك ابتكروا لها الرموش الاصطناعية إمعاناً فى الكيد لها والإضرار بها. والكعب العالى يُسبِّب انقلابَ الرحم، مما يؤدى إلى سُقوط الحَمْل. وأنت ترى أن المرأة التى تستعمل هذه الأشياء تعيش تعيسة النفس، ويزداد هَمُّها يوماً بعد يوم. ولو أنك نظرت إلى من يبيعون أو يَصْنَعُونَ هذه الأشياء نساؤهم لا تستعملها، لأنهم يعرفون ضررها على الجسم.

وصية للمرأة:

جاء فى كتاب «بلاغات النساء»[١] أن النعمان بن المنذر تزوج أربعاً من النساء من أربع قبائل تأييداً لعرشه، وتثبيتاً لمُلْكِه، واحدة أنمارية، والثانية سَلَمية، والثالثة نمرية، والرابعة أسدية.

فقال للأولى: ما أَوْصَتْكِ به أمك؟؟ فقالت: قالت لى: عَطِّرى جلدك، وأطيعى زوجك، واجعلى الماءَ آخِرَ طِيبِكِ، أى إن الماء أحسن شيء تتزين به المرأة لتظهر على طبيعتها.

وقال للثانية: ما أوصتك به أمك؟ فقالت: قالت لى: لا تجلسى بالفناء، ولا تكثرى المِراء[٢]، واعلمى أن أطيبَ الطِّيب الماء، (حيث تزيل به ما عَلِقَ على جسمها فتكون آية نقية وطاهرة بين يدى زوجها).

وقال للثالثة: ما أوصتك به أمك؟ فقالت: قالت لى: لا تطاوعى زوجك

(١) ص ٩٢.

(٢) المراء: الجَدَل والمخالَفَة.

فتملّيه، ولا تعصيه فتشكيه، وأصْدِقيهِ الصفاء، واجعلى آخر طيبك الماء (أى اغسلى فمك ووجهك وجسدك تكونى طيبة نقية).

وقال للرابعة: ما أوصتك به أمك؟ فقال: قالت لى: أَدْنِى سترك، وأكرمى زوجك، واجتنبى الإباء[1]، واستنظفى بالماء.

ونحن نقول: إن الوضوء من الوضاءة والتجمُّل والتنظُّف، لأن النظافة سلوك دينى ومظهر حضارى، وأحسن شيء يتجمل به الإنسان «الماء، ثم الماء» فهل من مُدَّكِر؟

أما الكوافير فلا ندرى السبب الذى دفع بالمرأة إلى الذهاب إليه، وليس لها ذقن ولا شارب، وزينتها وجمالها فى شعرها، لذلك أُمِرَتْ بستره. وذهاب المرأة إلى الكوافير «حرام»، حتى ولو كان فى ليلة زفافها، هذا إذا كان «الكوافير» رجلًا، أمَّا لو كانت فتاة أو امرأة فهذا مباح، وبشرط أن لا يتواجد أى رجل فى المحل مهما كانت صلته بمن تعمل فى المحل. ولا شك أن هذه المهنة كثر عليها الطلب، وأصبح من فيها رجال، ولذلك ننبّه على أن ذلك حرام ولا يجوز، لأن الحلّاق يهمس فى أُذن المرأة بكلام يُضْحكها أو يستميلها إليه، ثم ينصب شِباكَ الحِيَل ويُوقعها فى شر أعمالها، لهذا نصيح فى الناس جميعاً تنبَّهوا أيها الناس وخذوا حذركم من:

١ ـ الكوافير.

٢ ـ الخياط.

٣ ـ بائع الأحذية، خاصة عندما يختلى بها ليقيس لها المقاس ويُبدى إعجابه بساقيها، خاصة عندما تكون ملابسها قصيرة وهو جالس فى قبالتها، وملابسها الداخلية ظاهرة أمام عينيه، ولسانه يتمتم بكلمات محفوظة يُردِّدها فيخدِّر أعصابها، وقد تزلّ قدمها، لذا وجب التنبيه.

(١) الإباء: الترفُّع والاستعصاء.

الإسلام وموقفه من تجمُّل المرأة وتزيُّنها

إن الله سبحانه طَهَّر نفس المرأة من نزعة الحقد، وأبرأ قلبها من قرحة الغِلِّ، إذا لمس الإيمان شغاف قلبها ومَلَكَ عليها أقطار نفسها، لأنها رقيقةٌ حَسَّاسَةٌ، وَفِيَّة إذا صدقت، كذلك حسر عن عقلها حجاب الجهل، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل، فإن هى أسلمتْ وصَدَقَتْ فى إسلامها فإنها لن تخضع لعقيدة فاسدة، ولن ترضخ لوَهْمٍ مُمَوَّه. وإذا صدقت فى عقيدتها وعَلِمَتْ أن الله قد أسْدَلَ حُجُبَ الغيب دون أوليائه وأصفيائه، فلن تطلب ذلك الغيب، ولن تحاول كشفه فتبتعد عن الكُهَّانِ والعرَّافين، وزواجرِ الطير وطوارق الحصى، وأمثالِ كل أولئك من كل ذى لَغْوٍ مُمَوَّه، وظن مرجم، وضلالة باطلة، لأنها تؤمن أن الأمر كله بيد الله الواحد القهار، وأنه وحده مُقَلِّبُ القلوب، ومُحَوِّل الحالات، فلن تحتال على الحب واللقاء، ولن تعمل على ردّ سهم القدر بتعليق الخرزات، ولا بقول الرقى وعقد التمائم، فمفزعها فى كل شىء إلى الله وحده، تتوسل إليه بصالح الأعمال، وتعيش فى ظل ما تعتقده من إيمان قوى يجعلها تُحافظ على حُسن صلتها بالله، والدعوات الصالحات، لذلك فهى تسلم أمرها لله، وتصلح وجهها وظواهر هيئتها، فلا تموِّه خِلْقتها، أو تُلَوِّن وجهها، أو تصل شعرها، أو تكشف صدرها، أو تتبرج فى ثيابها، أو تبدى زينتها، لأنها تؤمن بأنه لا يليق بها أن تُغَيِّرَ فِطْرَةَ الله حتى لا تغرى بها مرضى القلوب، ويحول ذلك بينها وبين جد العمل وسُمُوّ الحياة.

على أن الإسلام أباح لها أن تتخذ من الثياب أدقَّها وأرقَّها، ومن الحلى أنْفَسَها وأضوأها، وأن تَدَّهِنَ، وتكتحل، وتختضب بالحنَّاء، وتتطيب، وتتجمل ما شاءت أن تتجمل، بشرط أن يكون لزوجها، وألاَّ تُغَيِّرَ خَلْقَ الله، أو تضع المساحيق الصارخة. فقد خَطَبَ علىٌ كرَّم الله وجهه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فباع بعيراً له بثمانين وأربعمائة درهم، فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوا ثُلثين فى الطِّيبِ، وثُلُثاً فى الثياب». وكانت عائشة أم المؤمنين تلبس المعصفر والمضرج من الثياب وفيها الخز والحرير، وتتحلى بالذهب، ودخلت عليها امرأة معصفرة فسألتها عن الحنَّاء، فقالت: شجرة طيبة، أو ماء طهور.

إنَّ أوَّل شيء بدأ به الإسلام في إصلاح المرأة، أنها إذا خرجت لبعض شأنها أن تضرب بخمارها على صدرها، لكي لا يَظْهَر شيء من مكشوف صدرها ولا زينة نحرها. وكان نساء الأنصار لا يتخذن الخُمُر فاتَّخَذْنَها لأن الله أمَرَهُنَّ بذلك، لقد أُمِرَتِ المرأة إذا سارت في مذاهِبِ الرجال أن تُرخي بعض ثيابها على بعض وجهها، بأن تستره ببعض خمارها حتى لا تُعْرَفَ بأنها من إماء المدينة أو بغاياها اللواتي يخرجن سوافر متبرجات، لكن الحرَّة المحصنة أُمرت بذلك حتى لا يؤذيها أرقاء الدين وفتيان المنافقين، حيث يتعقبونها ويتحرشون بها، على ذلك كان جمهور نساء المسلمين، فكُنَّ يغدون لحاجاتهن، ويغشين المجالس، ويتصدرن الأندية، ويتناولن أعمالهن مُحتشمات مُحَجَّبات غير متبرجات. وقد كانت سكينة رضي الله عنها ـ وهي بنت الإمام الحسين بن عليّ كرَّم الله وجهه ـ بَرْزَةً، تجلس إلى العلماء، والأدباء والشعراء. وكذلك كانت عائشة بنت طلحة، كانت لا تستر وجهها من أحد[1].

إبداء وجه المرأة وكفَّيها:

لا شك أن وجه المرأة وكفّيها ليسا بعورة، فقد دخلت أسماء بنت أبي بكر على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا وهذا»، وأشار إلى وجهه وكفّيه[2]. وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «دَخَلَتْ عليَّ ابنةُ أخِي مُزَيْنَةَ، فدخل النبي ﷺ فأعرض عنها، فقُلْتُ: يا رسول الله، إنها ابنة أخي وجارية، (يعني صغيرة)، فقال ﷺ: «إذا عركت المرأة لم يَجُزْ لها أن تُظهر إلا وجهها وإلاَّ ما دون هذا»، وقَبَضَ على ذراع نفسه فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى أو نحوها».

واحتج بذلك الإمام أحمد، ويؤخذ من ذلك القول بإباحة إبداء الوجه

(١) انظر كتاب «الأغاني»، ج ١٤.

(٢) رواه أبو داود، وهو حديث مُرْسَل مُحْتَجٌّ به لصحَّته [انظر: «نيل الأوطار»، ج ٦، ص ١١٤].

والكفّين. وقال الإمام الشافعى عند قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1] أى: الوجه والكفّين. وعن عبد اللّه بن عباس رضى الله عنهما قال: «أَرْدَفَ النبى ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خَلْفَهُ على عَجُزِ راحلته، وكان الفضل رجلًا وضيئاً، فوقف النبى ﷺ للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتى رسول الله ﷺ فطفق الفضل ينظر إليها، وأعجبه حُسْنَها، فالتفت النبى ﷺ والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده (أدارها من خلفه) فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله فى الحج عبادة، أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوى على الراحلة فهل يقضى عنه أن أَحُجَّ عنه؟ قال: «نعم»، وكان ذلك فى حجة الوداع»[2]. ويقول ابن حزم[3]: «فلو كان الوجه عورة يلزم ستره لما أقَرَّها النبى ﷺ على كشف وجهها بحضرة الناس، ولأمَرَها أن تُسبل عليه من فوق، ولو كان وجهها مُغَطًّى ما عرف ابن عباس أحسناء هى أم شوهاء، فصح ما قلناه».

وإذا كان النبى ﷺ أقَرَّ المرأة الخثعمية وهى وضيئة حسناء على كشف وجهها، على الرغم من وقوع النظر، وتجلَّى هَدْىُ النبى ﷺ فى منع الفضل من النظر إليها، وإقرار الخثعمية على كشف الوجه، لأن إحرام المرأة فى الحج أو العمرة فى وجهها وكفّيها. فقد جاء فى البخارى من حديث عبد اللّه بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنتقبُ المرأة المحرمة ولا تلبس القفَّازين». يقول ابن عبد البر وهو يشرح هذا الحديث: «وأَجْمَعَ على أن إحرام المرأة فى وجهها، وعلى كراهية النقاب للمرأة جمهورُ علماءِ المسلمين من الصحابة والتابعين، ولم يختلفوا فى كراهية الانتقاب والتبرقع للمرأة المحرمة، إلا شىء رُوِى عن أسماء بنت أبى بكر أنها كانت تغطِّى وجهها وهى مُحْرِمَة. ورُوِىَ عن عائشة أنها قالت: تغطِّى المحرمة وجهها إنْ شاءت. وقد رُوِىَ عنها أنها لا تفعل،

(١) سورة النور، الآية ٣١.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه.
(٣) فى «المحلَّى»، ج ٣.

وعليه الناس». ثم يقول: «وقد أجمعوا على أن للمرأة أن تكشف وجهها فى الصلاة والإحرام. وقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم ـ وهو قول الأوزاعى وأبى ثور ـ على المرأة أن تُغطِّى منها ما سوى وجهها وكفَّيها»[1].

ومن المعلوم أن الخاطب يَرَى من مخطوبته الوجه والكفين، وكذلك عند البيع والشراء، والشهادة، والتعليم والتعلُّم، ونسوق بين يديك هذا الحديث:

«عن سهل بن سعد السَّاعِدى قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئتُ أَهَبُ لكَ نفسى، فنظر إليها رسول الله ﷺ فَصَعَّدَ النظرَ فيها وصَوَّبَه، ثم طَأْطَأَ رسول الله ﷺ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقضِ فيها شيئاً جلست، فقام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله، إن لم يكن لكَ بها حاجة فَزَوِّجْنِيها. فقال ﷺ: «هل عندك من شىء؟»، فقال: لا والله يا رسول الله، فقال: «اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً؟»، فذهب ثم رجع فقال: والله ما وجدتُ شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «انْظُرْ ولو خاتماً من حديد». فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله، ولا خاتماً من حديد، ولكن هذا إزارى، فقال رسول الله ﷺ: «ما تصنع بإزارك؟ إنْ لَبِسْتَهُ لم يكن عليها منه شىء، وإن لَبِسَتْهُ لم يكن عليكَ منه شىء»، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ مولياً فأمر به فَدُعِىَ، فلما جاء قال: «ماذا مَعَكَ من القرآن»، قال: معى سورة كذا وكذا (وعَدَّها)، فقال: «تَقْرَؤُهن عن ظهر قلبك؟»، قال: نعم. قال: «اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن»[2].

وقد ذهب النووى فى شرحه لصحيح مسلم إلى استحباب نظر الخاطب إلى وجه مخطوبته، وهو مذهب مالك وأبى حنيفة وسائر الكوفيين وأحمد وجمهورِ من العلماء، لأن المرأة كانت كاشفةً ما ينبغى للخاطب أن يراه ـ أى الوجه والكفَّين ـ وذلك أمام النبى ﷺ وصحبه الكرام. يقول الإمام ابن حزم: «يجوز للأجنبى رؤية وجه الأجنبية وكفَّيها». وقال أبو حنيفة: «إن القدمين ليسا من العورة، فهما كالوجه

(١) «المغنى» لابن قدامة، ج ١.

(٢) متفق عليه.

والكفَّين». ويقول ابن عبد البر: «وقد أجمعوا على أن المرأة تكشف وجهها فى الصلاة والإحرام»[١].

ثم إن الرسول ﷺ أجاز للسيدة عائشة أن تنظر إلى الأحباش وهم يلعبون فى المسجد، وهذا من باب الرأفة والرحمة وحُسْن الخُلُق والمُعاشَرَة بالمعروف مع الأهل والأزواج وغيرهم. ومما لا شك فيه أنه يجوز للمرأة أن تخرج بِمُحْرِمٍ أو بغير مُحرم لقضاء الحوائج الضرورية والقيام بالمصالح المشروعة، وأن ذلك لا يتعارض مع الأمر الإلٰهى بالحجاب والقرار فى البيت، وذلك لحديث: «قد أَذِنَ الله لَكُنَّ أن تخرجن لحوائجكن»[٢].

ثم هناك الطواف حول البيت، النساء مع الرجال. وكذلك لها أن تخرج للجهاد، وتركب ثَبَج البحر، على أن يكون معها زوجها أو محرم لها. فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلى قباء يدخل على أُمِّ حرام بنت مِلْحان، وهى خالة أنس، فَتُطْعِمُه، وكانت تحت عبادة بن الصامت، فدخل يوماً فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ يضحك. قالت: قلت: ما يُضْحِكُكَ يا رسول الله؟ فقال: «ناسٌ من أُمّتِى عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ هذا البحر» ـ أى ظَهْرَ البحر ـ «مُلُوكاً على الأَسِرَّةِ»، أو قال: «مثل الملوك». فقالت: ٱدْعُ الله أنْ أكُونَ منهم يا رسول الله، فَدَعا، ثم وَضَعَ رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يُضْحِكُكَ يا رسول الله؟ قال: «ناسٌ من أُمّتِى عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ هذا البحر مُلُوكاً على الأَسِرَّةِ» ـ أو: «مثل الملوك على الأَسِرَّة» ـ فقالت: ٱدْعُ الله أنْ يجعلنى منهم. قال: «أَنْتِ مِنَ الأوَّلِين». فرَكِبَتِ البحرَ فى زمن معاوية فَصُرِعَتْ عن دابتها حين خَرَجَتْ من البحر فَهَلَكَتْ»[٣].

وقد أُجيز للمرأة أن تزور القبور، وهو أمر مباح، ثم إن رسول الله ﷺ كان يغزو بِأُمِّ سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويُداوِينَ الجرحَى،

(١) «المغنى» لابن قدامة.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه فى باب الجهاد، ومسلم فى باب الأمارة.

وأم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً، وعَلَّلَتْ ذلك بأنه لو دنا أحد من المشركين منها بَقَرَتْ بطنه، وضَحِكَ رسولُ الله ﷺ مِنْ هذا الصَّنيع[1]. وفى قضية مشاركة المرأة للرجل شرف الجهاد فى سبيل الله أورد البخارى عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، نَسْقِى القوم ونخدمهم، ونُداوى الجَرْحَى، ونردُّ القَتْلَى إلى المدينة». ولا شك أنهن يَفْعَلْنَ ذلك والوجه مكشوف، والكفَّان كذلك، ولم ينكر أحد من الصحابة.

جلباب المرأة:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾[2].

ويتبين من سبب نزول هذه الآية أن الهدف هو أن تتميز الحُرَّة عن الأَمَة فلا يؤذيها أحد بالقول، لأن المدينة كانت ضيِّقة المنازل، وكان النساء إذا جَنَّ الليل خرجن فقضين الحاجة، فإذا رأوا المرأة وليس عليها قناع قالوا هذه أَمَةٌ، فيُراوِدُونَها، فأنزل الله هذه الآية. قال ابن كثير فى تفسيره: «يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصةً أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يُدْنِينَ عليهنّ من جلابيبهنّ، ليتميزْنَ بذلك عن سِمات نساء الجاهلية الإماء.

ويقول القرطبى: «الجلباب هو الثوب الذى يستر جميع البدن، والجلباب هو ما يستر الجسم كله، بحيث لا يكون زينةً فى ذاته يلفت الأنظار، لأن الغرض من الجلباب ستر الزينة فى المرأة، بحيث أن لا يصف اللباس جسدَ المرأة، كأن يكون ضيِّقاً ويبيِّن تقاسيمها. فعن دِحْيَةَ الكلبى رضى الله عنه قال: «أُتِيَ رسول الله ﷺ بقُباطِيَ فأعطانى منها قبطية، فقال: «اصدعها صدعين فاقطع أحدهما قميصاً وأَعْطِ الآخر امرأتك تختمر به»، فلما أدبر قال: «وَأْمُرِ امرأتَكَ أن تجعل تحته ثوباً لا يصفها». قال الإمام الشوكانى فى شرح هذا الحديث: «هو يدل على أنه يجب على

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) سورة الأحزاب.

المرأة أن تستر بدنها بثوب لا يصف، وهذا شَرْطٌ فى ستر العورة، بحيث لا يشفّ ما تحته، لقول رسول الله ﷺ: «**صِنْفَانِ من أهل النار لم أَرَهُما**»، وذكر منهما نساء كاسيات عاريات، فهى كاسية نفسها بثوب غالى الثمن، لكنها عارية، لأنه شَفَّ وَوَصَفَ وحَدَّدَ ما لا يجب». ولهذا جاء فى رواية حديث آخر بعد ذلك: «**الْعَنُوهُنَّ، فإنهن ملعونات**»، يعنى كل امرأة أو فتاة تلبس ما لا يستر جسدها أو ترتدى ما يصف أو يشفّ أو يُجَسِّم جسدها.

ثم عليها وهى خارجة فى زيٍّ يسترها وفى حشمة ووقار ألاَّ تضع الروائح على نفسها، فإن الرائحة تلفت الأنظار إليها. ففى الحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرأة استعطرت فمرّتْ على قوم يجدون ريحَها فهى زانية**»[1]. ونحن نعلم من أحاديث أخرى أن العين تزنى وزناها النظر ـ إلى آخر ما ورد فى هذا الأمر ـ والعقاب هنا أقل من فِعْل الفاحشة، لأن ذلك من الأبواب التى تجر إلى الزنا.

ثم عليها ألاَّ تتشبَّه بالرجل، لا فى ملبسه ولا فى مشيته، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «أن الرسول ﷺ لَعَنَ الرَّجُلَ يلبسُ لُبْسَةَ المرأة، والمرأةَ تلبَسُ لُبْسَة الرجل»[2]. وكذلك لا يشبه لباس المرأة المسلمة لباس الذين ليسوا على دين الإسلام. فعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: «رأى رسول الله ﷺ عَلَيَّ ثوبين مُعَصْفَرَيْن فقال: «**إن هذه ثياب الكفَّار فلا تلبسها**»[3]، وألاَّ يكون لباس شهرة، يتحدث الناس عن غلاء ثمنه وثمن حياكته وفخامة مظهره، لأن ذلك يدعو إلى التكبُّر والتفاخر، ففى الحديث عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَبِسَ ثوبَ شهرة فى الدنيا ألبسه الله ثوب ذِلَّة يوم القيامة ثم ألهب فيه ناراً**»[4].

---

(١) رواه الترمذى.
(٢) أخرجه أحمد.
(٣) رواه مسلم.
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود.

إن الإسلام يعتنى بالمرأة، خاصة فى توفير العناية بها وصيانتها عن كل ما يؤذيها ويمسّ كرامتها ويتناول سمعتها. تقول الكاتبة (هيديان سنانسبرى) وهى من دول الغرب، تقول بعد أن أثنت على مكانة المرأة فى الإسلام: «أنصح بأن تتمسكوا بأخلاقكم وتقاليدكم، وامنعوا الاختلاط، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحية وانطلاق ومجون أوربا وأمريكا، إن اللباس لِسَتْر العورة مِنْ نِعَمِ الله على العباد، حيث جُبِلَتْ على ذلك الفطرة السليمة».

نقدم هذا آملين أن تعلم المرأة أن الإسلام لا يُضَيّق عليها، ولكن يصونها ويحوطها بالرعاية. إن المرأة التى تُخالط الرجال فى مجتمعنا المعاصر، وهى ترتدى الجونلة القصيرة وجانبها مفتوح، ولحم الساق والفخذ ظاهر للعيان، وقميصها يكشف عن جزء كبير من صدرها، وتسريح شعرها ظاهر أمام العيون يَشِى بأنها خارجة من عند «الكوافير»، والأصباغ على وجهها صارخة، إن هذه المرأة تتعرض للغمز واللمز والمعاكسات من الشباب ومن غيرهم، بل هى تسمع بعض الكلمات فى حقها من بعض السيدات، وهذا الذى يخدش حياء الناس فى الشارع، ويقتل النخوة الرجولية عند الرجال، حين يرون هذا التبرج السافر، ويميت الحمية فى نفوسهم، كما أنه يؤدى إلى اضطراب العلاقات بين المتبرجة وزوجها وأهله إن كانت عندهم نخوة، حيث يسوء الظن بها، وقد ينتهى الزواج بالفشل سريعاً.

إن المتبرجة قدوة سيئة لبنات جنسها، خاصة إذا كانت تعمل فى مهنة كالتدريس، وتكون بهذه الصورة أمام الطالبات، ثم هى تعرض صحتها للخطر، وتشوّه وجهها بالمساحيق التى تلهب الجلد وفروة الرأس. ومما لا شك فيه أن كل هذه المظاهر تستنزف ميزانية الأسرة، وبالتالى ميزانية الدولة. والمتبرجة لا تؤدى عملها بكفاءة ومهارة وابتكار، لانشغالها بنفسها، والحفاظ على ملابسها وأصباغها، وغير ذلك.

إن المرأة المحتشمة تجد المجتمع يدافع عنها، كما حدث عند عَبَثِ يهودى بحجاب مسلمة فقتله المسلمون دفاعاً عن شرف كل واحد منهم، لاستشعار

بمسئولية الحفاظ على العِرْض والشرف. كذلك عندما اعتدى رومىٌّ على مسلمة فنادت: وامُعْتَصِماه! فجَهَّزَ الخليفة المعتصم جيشاً لرد الاعتداء عليها، وكانت مَوْقعَة عَمُّوريَّة التى انتصر فيها جيش المعتصم، ورَدَّ للمسلمة اعتبارها. ولقد قرأت تقريراً لوزارة الداخلية فى عام ١٩٩٤ م جاء فيه: إن الفتيات تشتركن فى مسئولية المعاكسات بهن بسبب المكياج، وعدم الالتزام بالزىّ المحتشم، والسلوك المهذب. إننا نهيب بكل فتاة أن تلتزم بالحشمة والوقار لتعيش سعيدة آمنة فى نفسها، راضية عن مجتمعها، لأنها بهذا الزى تحظى باحترام الجميع.

المرأة والتعليم

للبنت ما للولد تماماً فى حق التعليم، فحق البنت فى الأدب والتربية يتساوى مع الولد، ولا تقل عنه أى شىء، ولأبيها أجْرٌ على تعليمها والسمو بها وإعزاز مكانتها، ففى الحديث الشريف: **«مَنْ كانت له أُنْثى فلَمْ يَئِدَها ولم يُهِنْها ولم يؤثر ولده ـ الذكر ـ عليها أدخله الله الجنة»**[1]. ويجب أن يهتم تعليم الفتاة بِغَرْس العقيدة الصحيحة فى نفسها، مع غرس القيم الأخلاقية والمعارف التى تنير ذهنها، وتوثق رابطتها بما حولها من شئون الحياة، والعبادات ـ وهى تتهيأ لها مع بيان أحكامها وروابط الصلة بالله ـ وسُنَّة الاجتماع، ومبادئ السلوك، والأسرة وكيف يتم تكوينها.

إن البنت ستكون ـ فى المستقبل إن شاء الله ـ زوجة وأُمًّا، وكل مرحلة لها فيها حقوق وعليها واجبات، لذلك تدرس هذه الأمور بالإضافة إلى دراسة الغاية من الحياة، وهى مهمة متعددة الجوانب، منها الاقتصادى، والاجتماعى، والتربوى، والإدارى، ثم يجب أن تتعلم التدبير المنزلى، وكيف ترتب ميزانية الأسرة، لأنها ستكون المسئولة عن دخل الأسرة ومصاريفها، لأن الرسول ﷺ يقول: **«المرأةُ راعيةٌ فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها»**[2].

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه البخارى.

إن المرأة خُلقت لتكون زوجة وأمًا، وهذه أسْمَى وظائفها. ومما لا شك فيه أن القُدْرَة حين فَرّقَتْ بين الرجل والمرأة فإنها أرادت أن يكون للرجل اختصاص فى الحياة غير اختصاص المرأة، وما اختلاف التكوين الجثمانى إلا ليتجه كل منهما إلى ما أعدَّه الله له. إن كتب الحديث مليئة بأسماء سيدات خرجن إلى رسول الله ﷺ فى المسجد يسألنه حُكْمَ الشَّرع فى أمور الدين والدنيا، ونذكر ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: «ذهب الرجال بحديثك فاجعلْ لنا من نفسك يوماً فنأتيك فيه تُعَلِّمنا مِمَّا عَلَّمَكَ الله، فخصص لهن يوماً يُعلِّمهن فيه»[1].

ونحن نُلِحُّ أن تتعلم المرأة ما تقدر عليه وما تتطلع إليه، لكن بشرط عدم الاختلاط فى المدارس أو الجامعات أو أماكن التدريب، لأن مرحلة الشباب من أخطر مراحل العمر، وعنفوان الشباب يصرف الأولاد عن التحصيل الجاد، ولعلنا مررنا بهذه المرحلة وجنينا بعض ثمارها، تفكُّكاً وعدم قدرة على العطاء، ذلك لانشغال معظم الطلبة والطالبات بالتفكير فى الجنس والخيال الخصب، مما يجعل الفرد منهما يسرح بعيداً فى لا شىء. تقول مُدَرِّسة إنكليزية: «إن الطالبة لا تفكر إلا بعواطفها، وإن أكثر من ٦٠٪ من الطالبات سقطن فى الامتحان، ويعود ذلك إلى كثرة تقليدهن فى هذا العالم المغلق أمامهن الآن. ولقد كان الطلبة والطالبات لا يشاركون فى الدروس خيفة أن يُخطئ أحدهم فيخجل أمام الجنس الآخر، ويكيد بعضُهم لبعضٍ، لأن هذا خَطَفَ منه صديقته، وتلك جذبتْ صديقَ الأُخرى. ثم إن الطلبة المراهقين يتواعدون ليقضوا وقتاً فى النزهة وشرب الأشياء المنكرة. ولقد أثبتت الأبحاث والتجارب أن مستوى ذكاء الطلاب فى المدارس المختلفة قد تدهور بين الجنسين: الطلبة والطالبات. إن تَوَحُّدَ نوع الجنس فى المدارس أو الجامعات يؤدى إلى إشعال روح المنافسة بين بعضهم وبعض».

ثم تقول: «ولقد أثبتت دراسة أجرتها النقابة القومية للمدرسين البريطانيين أن

(١) رواه البخارى فى كتاب «الاعتصام».

التعليم المختلط أدى إلى انتشار ظاهرة التلميذات الحوامل سفاحاً وعمرهن أقل من ١٦ عاماً، كما تبين أن استعمال الفتيات لحبوب منع الحمل فى المدارس يتزايد كمحاولة للحد من الظاهرة دون استئصالها أو علاجها».

وتقول الصَّحَفية الأمريكية «هيلسيان سانسيرى»: «امنعوا الاختلاط، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير، ولقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً، مليئاً بكل صور الإباحة والخلاعة، وإن ضحايا الحرية المُتَفَلِّتَة يملأون السجون والأرصفة والبيوت السرية».

عَوْدٌ على بَدْء:

نخلص مما سُقناه آنفاً إلى أن الحجاب عاش بمفهوم خاطئ فى أذهان كثير من الناس فى المحتمعات الإسلامية، لأن فهمهم له كان على غير وروده فى القرآن الكريم. ومن ذلك:

١ ـ استقرار البنت فى البيت، لا تخرج من بيت أبيها إلاَّ إلى زوجها وبيته، وكانوا يبالغون فى ذلك ويعتبرونه دليلًا على شرف الأُسرة، وعراقة أصلها، وأنها تتمتع بقدر كبير من الآداب والفضائل.

٢ ـ لا تخرج البنت أو المرأة من المنزل لقضاء حاجة إلا باللَّيل، لأنه ستر، وعلى عتبة الدار كانت تنتظرها عربة «الحنطور» أو سيارة مغلقة النوافذ لتنقلها.

٣ ـ تلبس المرأة الملابس الفضفاضة والملس أو العباءة بعد ذلك على الملابس.

٤ ـ وهى فى بيتها لا ترى أحداً ولا يراها إلا الأب والأخ والزوج، ولا يبيحون لها أن ترى أىَّ أجنبى، حتى ولو كانت مريضة لا يراها الطبيب.

٥ ـ آية الحجاب فى القرآن واحدة، وقد وردت فى شأن نساء النبى ﷺ، لأن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يلحّ أن يكون لزوجات النبي ﷺ وَضْعٌ خاص يحجبهن عن أعين الأجانب، وكان النبى ﷺ يسكت عندما يسمع من عمر

رضى الله عنه ذلك الأمر، فنزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾(١).

وقد أورد البخارى ومسلم: «أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: يا رسول الله، يدخلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ، فلو أَمَرْتَ أُمَّهات المؤمنين بالحجاب»، فنزلت الآية السابقة. قال ابن حَجَر العسقلانى فى «فتح البارى»: «إنَّ عمر قصد بعد آية الحجاب أَلَّا يُبدين أشخاصهن أصلًا، ولو كُنَّ مستترات، فبالغَ فى ذلك، فَمُنِعَ منه، وأُذِنَ لهن فى الخروج لحاجتهن دفعاً للمشقة وللحَرَج. وكان الحجاب المفروض على زوجات النبى ﷺ وهن مستترات فى الوجه والكفين. والحجاب فُرِضَ عليهن بلا خلاف، ولا يجوز لهن كشف الوجه والكفين حتى فى الشهادة أو غيرها وهناك مَنْ قَلَّدَهُنَّ من فُضليات النساء، وكُنَّ عليه منذ عهد النبوة، حتى دَخَلَهُ التشديد والمبالغة»(٢).

إن الحجاب ما هو إلا «جملة من الآداب العامة» كان للإسلام فضل فى تقريرها، وذلك لمكانة المرأة، ثم القضاء على فعل الجاهلية.

لقد حرص الإسلام على أن تتبوأ المرأة مكانها الحق فى الحياة باعتبارها كائناً ذا رسالة قُدسية يرنو إلى تحقيقها فى الوجود، لأنها أُعِدَّت لإبراز أَجَلِّ القيم فى الإنسان، وإبراز خصائصه وقِيَمه النفسية والاجتماعية، لذلك أَلْزَمَ الرجلَ واالمرأةَ بغَضِّ البصر، وحِفْظِ الفَرْج، وذلك قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا

(١) سورة الأحزاب.

(٢) «فتح البارى فى شرح صحيح البخارى»، ج ١٠.

يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾[١].

إن غض البصر الذى أَمَرَ الله به كُلًّا من الرجل والمرأة لا يعنى أساساً إسبال الجَفْنين أو خفضهما على العين تنزيهاً لهما عن المحرمات، فإن الإنسان قد يكون فى بيئة مزدحمة تموج بالحركة وأسباب الحضارة، فلا يتيسر له عادة أن يُحافظ على نفسه من أَذَى المرور ومخاطِرِه وهو مفتوح العين إلا بشق النفس، فكيف إذا غَضَّ بصره؟ إنما المقصود الأول ما وراءَ ذلك، من انكسارِ هِمَّةِ القلب عمَّا لا يليق، فهو أَمْرٌ للمؤمنين والمؤمنات أن يشغلوا أنفسهم وأذهانهم وضمائرهم بالأمور النافعة، والثقافات الحكيمة التى يميز بها المرء قِيَم الحياة، ويُبصر حقيقة نفسه، فتكون هِمَّة القلب على ذلك متعلقة بمعالى الأمور، زاهدة فى سَفْسافِها[٢] وحينئذ يكون نظر الإنسان إلى ما حوله صورة معبِّرة عن حال هِمَّته، فتراه يزدرى الصغائر ويتجاوزها إذا وَقَعَ نظره عليها، فلا يُطيل النظر مثلًا إلى امرأة ذهاباً أو إياباً مع ما عرض له من محاسنها[٣].

إن ستر جسد المرأة بملابس لا تصف ولا تشفّ ولا تُحَدِّد تكون سبباً فى صلاح باطن الإنسان وظاهره بالعِفَّةِ والوقار، ثم لا يجوز للمرأة أن تتبرج أو تتبختر فى مشيتها وتعمل على إبراز محاسنها مع زينتها وتُلقى خمارها عن رأسها، لأن ذلك لا يليق بالمرأة. إن خطر المستهترين بالقيم الدينية كالمنافقين تماماً، وكلاهما فى الدَّرْك الأسفل من النار، لأن من الفساد الذى استشرى فى الجاهلية أن النساء فى المدينة كُنَّ يخرجن ليلًا بقضاء حاجتهن، فكان بعض الشباب يتعرضون لهن فى

(١) سورة النور.
(٢) السَّفْساف: الردىء الحقير من كل شىء وعَمَل.
(٣) انظر: «قضايا المرأة المعاصرة» للبهى الخولى.

الظلام، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب فضفاض وغطاء رأس قالوا: هذه حُرَّة، فَكَفُّوا عنها، ولا يتعرضون لها، لذلك أرْدَفَ الحق سبحانه بعد آية الجلابيب، قوله سبحانه: ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾(1).

إن خطر المستهترين فى المجتمع يضر بالمجتمع ويقوِّض أركانه ويهز كيانه، ومع ذلك جاء النهى عن تشبُّه المرأة بالرجل أو الرجل بالمرأة، والنهى عن الخَلْوَة، ففى الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَخْلُوَنَّ بامرأة ليس بينه وبينها محرم». وورواية البخارى: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلونَّ أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم»، وليس ذلك طعناً فى ذِمَّة أحد، أو سوء ظن فيهما، وإنما ذلك مُؤَسَّسٌ على ما فى طبيعة البشر من احتمال الاستجابة للغرائز عند الخلوة والبُعد عن الرقباء، مما يجعل النفس تهفو إلى تذوق الممنوع. ففى الحديث عن رسول الله ﷺ: «إياكم والخلوة بالنساء، والذى نفسى بيده، ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما». وتقول أم البنين «أخت عمر بن عبد العزيز»: «ما تحلَّى المتحلُّون بشىء أحسن عليهم من عِظَمِ مهابة الله فى صدورهم، وإن لكل قوم نَهْمَة(2) فى شىء، وجعلت نهمتى فى البذل والعطاء».

---

(1) سورة الأحزاب.

(2) النَّهمة: الحاجة، والشهوة في الشيء.

الطـلاق

نظرة المجتمع إلى المُطلَّقة:

رأيت فتاة ترتسم على وجهها علامات الحزن والهم والتعاسة، فآلمنى ذلك وحَزَّ فى نفسى، فتوجَّهت إليها ناصحاً وقلت لها: لِمَ هذا التشاؤم يا فتاة والحياة جميلة والآمال عريضة؟

قالت: ماذا أقول لكَ يا شيخنا؟ إننى أُرَدِّدُ قول أُخْتٍ لى فى الزمان الماضى قالت: «يا من له شَعْرٌ كَحَظِّى الأسود».

فقلت لها: يرحمك الله يا أُخْتاه! إن وراءك قصة، فهل نسمعها إنْ لم يُضايقْكِ سَرْدُها؟

قالت: كلا، فأنا كما ترى بنت خمسة وثلاثين عاماً، ولى ثلاثة أولاد هم الآن مع والدتى، كنا نعيش فى رغد من العيش ونهنأ بالحياة، ولا يعكر صفونا شىء، وزوجى مستقيم، يصلى ويؤدى عمله بأمانة ونشاط، وهِمَّة وكفاءة، ويشارك أهل الحى أفراحهم وأحزانهم، وفجأة وجدت زوجى بدأ يهمل بيته، ويتأخر عن عمله، ويتكاسل عن أداء الواجب، ومن حرصى على زوجى بدأت أتصل بزملائه فى عمله، أسأل عنه لأنه يتأخر، فيقولون لى: وفى العمل أيضاً يتأخر، بل بدأ يهمل فى عمله. وزاد الأمر سوءاً أنه بدأ ينام خارج المنزل، وطالت غيبته عن بيته وأولاده، ولما حضر بعد مُدَّة زمنية سألته: أين كنت؟؟ قال لى: أنتِ طالق.. رُوحى لحال سبيلك! ومن هنا يا سيدى بدأت مشكلتى.

والطلاق فى هذا الزمان جريمة، لأن المطلَّقة إنْ خرجت من بيتها تَتَبَّعَتْها

العيون حتى تعود، وتتناولها الألسنة، وهى الشريفة العفيفة، لكن هذا حُكم الزمان، لقد أصبح ضحكى جريمة، وتبسُّمى عاراً. ونظرتى خطأً أستحق عليها اللَّوْم والتأنيب. . حُوصرت بأفكار ما كان لى من علم بها قبل ذلك. . إن زُرت ابنة عمى المتزوجة فهى منى على حَذَر، لأن خيالها يُصَوِّر لها أننى ربما أخطف منها زوجها، وهى تستعجلنى لأنزل من بيتها حتى لا يطول حديثى مع زوجها الذى إنْ تلطَّف فى سؤالى عن حالى وحال الأولاد فالويل له، يشتعل عليه البيت ناراً بعد نزولى، بل يا سيدى جارتى كانت صديقة حميمة لى وأنا فتاة عذراء، ولما تزوجتُ زادت الصلة بيننا، فلما طُلِّقْتُ قاطَعَتْنى، وإن تصادف رؤية زوجها لى وألقى علىَّ السلام تخرج زوجته مسرعة وتقول له: «أنت فاكر أنا نايمة على ودني؟! لا، أنا مفتحة لكما جدًّا»، وهى تعرف سيرتى، ووالله يا سيدى ما فكرت فى شىء مِمَّا يجرى على لسانها قَطُّ، بل قالت لى فى يوم: «أنا عارفة إنك بتعمليله عمل ـ سحر ـ علشان تخطفيه منى»، وعلا صوتها، وتجمَّع الجيران حولنا، وكل واحد بكلمة، واللوم عَلَىَّ طبعاً، ودخلت إلى شقتى وأغلقتُها علىَّ ومعى والداتى المُسِنَّة لا تملك إلا الدموع تذرفها، وإخوتى الصغار يسمعون ويرون ونفسيتهم تتعقد، وأولادى أيضاً، لقد زارنى بعض نسوة من الحى مُسنَّات، وقالت لى واحدة منهن: «يا بنتى اعذرى جارتك لأنها خايفة على بيتها، ومش معقول أن ثورتها دى كلها وليدة لحظة والسلام، دى لازم شافت حاجة كدة وَلاّ كدة، وأنت يا بنتى مُطَلَّقة، وأهل البيت الفلانى كان فيه واحدة مطلقة لهفت جوز جارتها. . .».

وهنا وجدت نفسى أصرخ وأقول: يا نساء الحى، يا عُقَّل، يا كُمَّل، لا بد أن يكون لَدَيْكُنَّ عقل «ما تبقوش عاملين زى عواجيز الفرح كل واحدة بكلمة»، المرأة يزينها عقلها، ويعلو قدرها ما دامت متحصِّنة بالفضيلة، وملتزمة بالعفَّة. لقد عشتُ بينكم ردحاً من الزمن فتاةً ومطلقة، هل رأيتن أو سَمِعْتُنَّ عنى أى شىء؟ قلن: لا بل كل الخير، إذَنْ ما الذى غَيَّرَ الموقف؟ اعلمن أنَّ زوجها إنْ كان «طفس»، فأنا العاقلة العفيفة، الطاهرة الذيل، الطيبة السمعة، إننى لا أزكى نفسى، ولا أحاول أنْ أبنى سعادتى على شقاء الآخرين مهما كان، لأننى أؤمن بقول رسول الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه».

كانت الفتاة تتحدث وهي فى قمة الانفعال، فقاطعتها وقلت لها: يا فتاتى، كيف تتصورين الطلاق؟ قالت: مصيبة، كارثة، لأن المُطَلَّقة فى مجتمعنا «بعبع» يدخل الرعب على النساء المتزوجات خوفاً من المطلقة أن تشد الرجال بحبائلها.

وفى المساء أثرتُ هذا الموضوع مع بعض أصحابى الذين زارونى فى منزلى وقلتُ لهم: هذا موضوع الساعة، يجب أن نناقشه من كل زواياه، خاصة أن المستشرقين جعلوا «الطلاق» فى الإسلام قضية، وبنوا عليها بعض المسائل التى شوَّهوا بها وجه الإسلام المضيء: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾[1]. وبدايةً أقول لكم: إن الإسلام أباح الطلاق على بُغْض، ولم يَدَعْ وسيلة من وسائل الوفاق إلاَّ نبَّه عليها. والطلاق يَمُجُّه الذوق السليم والعقل الناضج، وهو بهذا يُساير سُنَّة الحياة، إذاً ماذا يصنع الزوج إذا صادَفَ زوجة خرقاء حمقاء، لا يصدر عنها إلا ما يكدِّر العيش على زوجها ويرهق أعصابه؟ وماذا تصنع الزوجة إذا صادفت زوجاً أحمقَ بخيلًا؟ وهكذا نجد أن الطلاق لا يتم إلا بأسباب وعِلَل، نبَّه الإسلام إلى بحثها، واختيار حكمين من أهل الزوج وأهل الزوجة ليستمعا لكلٍّ على حِدَة، وإجراء مواجهة إن اقتضى الأمر، حتى يكون الطلاق له أسبابه الوجيهة، مع عدم ظلم أحد، ثم إقرار الحقوق: السكن، والنفقة، إلى آخر ذلك.

قال أحد الصَّحْبِ: إن فلاناً ـ وهو هنا ـ له دراسة فى هذا الموضوع، فإذا أذنت له لكى نستمع إلى رأيه فى هذا الأمر. فأشرتُ إليه أَنْ تَحَدَّث. فوقف قائلًا: إن المرأة يا شيخنا فى كثير من عصور التاريخ تتعقد حياتها طبقاً لتعقُّد طبيعتها، ذلك لأنها نشأت تحت سيطرة الرجل وغطرسته، فكان يطوف بها حيثما أراد، لا يعترف لها بحق، فلما بدأ عصر الاستقرار تمثلت زعامة الرجل فى الاستحواذ عليها والاستئثار بها، ولقد كانت شريعة «كن» بالصين تعتبر المرأة حيوانَ لذةٍ فقط، وفى نفس الوقت كانت المرأة تُباع فى «بابل»، وكان بيعها بالمزاد العلنى على يد

---

(١) سورة التوبة.

الكاهن. والفيلسوف الإغريقى «ديوجين» رأى امرأة يحملها السيل فقال: دَعِ الشَّرَّ يغسله الشَّرُّ. وكانت هذه كذلك نظرة «سقراط». أما «الأثينيون» فكانوا يتجرون بالنساء، ويبيحون للرجل أن يتزوج بأى عدد من النساء، وللمرأة كذلك أن تتزوج بأى عدد من الرجال. أمَّا «الرومانيون» فكانوا لا يعترفون بإنسانية المرأة، إلى أن اجتمع المَجْمَع الرومانى سنة ٥٨٦ م وقرروا منحها درجة الإنسانية، بشرط أن تكون خادمة للرجل، لأنها ما خُلِقَتْ إلاَّ لهذا، وهى لا تجلس معه على الطعام، ويُكَمَّمُ فمها حتى لا تضحك، لأنها أُحبولة الشيطان. أما فى «إنكلترا» فكانت المرأة تُباع بشلنين إذا ثَقُلَتْ معيشتها على الكنيسة، والقانون هناك لا يعدها من المواطنين، واستمر ذلك حتى سنة ١٨٥٠ م. وفى فرنسا ليس لها ذمة مالية فلا تبيع ولا تشترى إلا برضا زوجها.

وهكذا يا سيدى نرى أن المرأة تقاذفتها أهوال، وتلقفتها نفوس غليظة، إلى أن نص قانون وضعه «أرنست» الرومانى بأن للرجل أن يُطلق زوجته بشرط أن يشهد سبعة أشخاص على أن الرجل طلَّق زوجته، وكان ذلك فى «روما» حيث قِلَّة النسل، وكانوا يريدون للأسرة أن تستقر حتى تنجب الأولاد، فلما كثر النسل أُرْخِيَ الحبلُ ولم يُطَبَّق القانون، وصار الطلاق مباحاً لأَوْهى الأسباب، حتى كانت المرأة الرومانية كل عام تحت رجل وفى عصمته، فانحلَّت الأسرة انحلالاً مُنذراً بالدمار. كما أن الديانة اليهودية أقرَّت الطلاق، والمسيحية أيضاً فى عهودها الأخيرة.

الضمانات التى وضعها الإسلام للحفاظ على كيان الأسرة واستقرارها:

إن الطلاق ناجم عن الحرية الشخصية، وعقد الزوجية ـ ككل العقود ـ يجوز التحلل منه، وكل عقد لا يمكن تلاشيه يكون مُضَيِّعاً وحاجزاً لهذه الحرية، لذلك تجب إباحته، ولقد أباحه العرب، لكنه كان فى فوضى، فالرجل له الحق أن يُطلق زوجته متى شاء، وبأى عدد أراد، فلما أشرقت الأرض بنور ربها وجاء الإسلام وضع عدَّة قواعد للزوجية عند الطلاق، بعد أن وضع للأسرة من الضمانات ما يصون لها استقرارها والحفاظ على كيانها الاجتماعى وتحصينها ضد أى هزة تؤثر عليها بقواعد، هى:

١ ـ جعل العصمة فى يد الرجل، لأنه أَمْلَكُ لنفسه وأقدرُ على ضبط عواطفه واستعمال عقله.

٢ ـ الرجل هو الذى قدَّم المهر، وأَثَّثَ البيتَ، وأنفق من ماله، فيكون شحيحاً بالطلاق.

٣ ـ إذا دَبَّ الخلاف بين الزوجين يسمى «شقاقاً»، وقد رسم الإسلام حاله علاج الشقاق إذا استحكم الخلاف واستعصى الحل، وذلك فى قوله الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾[١] هذا هو أحسن علاج للشقاق، لأن الحَكَمَيْن من أسرة الزوج والزوجة، وكلاهما حريص على بقاء الحياة الزوجية، وتثبت دعائم الأسرة، والإبقاء على الكيان الاجتماعى لها.

فإن فشلت المحاولة ولم يكن هناك اتفاق وتراضٍ، فيحدد كل شيء: مؤخر الصداق، الأولاد، النفقة، المتعة، وهكذا. وقد أشارَ الحق سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله:

﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾. قال الإمام الزمخشرى: «إنْ قَصَدَ الحَكَمان إصلاحَ ذات البين وكانت نيَّتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله بُورك فى وساطتهما وأوقع الله ـ بطيب أنفسهما، وحُسن سعيهما بين الزوجين ـ الوفاقَ والأُلْفَة، وألقى فى نفوسهما المودَّة والرحمة». إن الله سبحانه عَلَّق التوفيق بين الزوجين على ما ينطوى عليه كُل حَكَم من الحَكَمين من نية صالحة ورغبة صادقة فى التوفيق. ولقد حدث أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رُفعت له قضية شقاق بين زوجين فبعث بحَكَمين للتوفيق بينهما، لكنهما عادا وقالا: يا أمير المؤمنين، عجزنا فى مهمتنا، فغضب وقال: كذبتما، لو كانت لكما إرادة صادقة فى الإصلاح لباركَ الله سعيكما، فإن الله ما قالَ إلاَّ صَدَقَ، وهو القائل: ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾، فعاودَ الرجلان سعيهما بنيَّة مخلصة، وعاطفة صادقة، وروح جديدة،

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٥.

فبارك الله سعيهما وتمَّ الوفاق. ومع ذلك فإن النية الصادقة تؤثر في الزوجين بالسعادة بعد الانفصال، لأن الأمور حُدِّدت، والمفاهيم اتَّضَحَتْ، وكُلٌّ أخذ حقَّه بالرضا والقبول، وإلى هذا جاءت الإشارة من الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾[1].

نشوز الزوج:

قال أحد الحضور: لقد اتَّضحت هذه المسألة، وما الحُكْم لو كان الزوج هو النَّاشِز النافر، لأنه سيِّئ الطبع، فاسد الأخلاق، بخيل، يتهرب من كل مسئولية تتعلق بالمنزل والأسرة؟ رفع أحد الحضور يده يطلب الحديث، فلما أُذِنَ له قال:

تكوين الأسرة أمر يحتاج إلى رجل يعرف مهمته ومسئوليته، لأن الزواج مسئولية، ولهذا ورد عن رسول الله ﷺ: «**إذا أتاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دينه وأمانته فَزَوِّجُوهُ، إلاَّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[2]. ذلك لأن الزوج المتديِّن إنْ أَحَبَّ زوجته أكرمها، وإنْ أبغضها لم يُهِنْها، لعلمه أن الله يُحاسبه ويأخذ حقها منه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. وهو يؤيد ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما قال له أحد الأشخاص: «أريد أن أُطَلِّق زوجتي لأنني لا أحبها»، فقال له: «وهل كل البيوت بُنيت على الحب؟ إنما يفرح بالحب النساء»، أي: ما دام لا يعيب أخلاقها أو هيأتها فعليه أن يُعايشها بالمعروف. يقول الله في بيان هذا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[3].

ثم إن الزوجة عليها أن تُبادر دائماً إلى إرضاء زوجها وإدخال السرور عليه، وتستعمل ما لديها من حيل وذكاء لتعالج أسباب نُفور الزوج منها بعد أن تكون قد

(١) سورة النساء.

(٢) رواه ابن ماجه في «النكاح».

(٣) سورة النساء.

درست تلك الأسباب، كل ذلك بتلطُّف، وقد يطلب بعض الأمور الشاقة فتقبل ذلك، رغم أن حالتها النفسية مضطربة من ذلك، فتقوم بأداء ما كلَّفها بسماحة نفس وطيب خاطر، لأن قبولها توجيهات زوجها إنما ذلك واجب تعتز به المرأة بعد عبادة الله. إن المرأة عليها أن تتأنّى فى تحليل نفسية زوجها، وأن يكون لديها براعة المدخل فى علاج الأمور، ثم هى لها حِسٌّ، وقلَّما تخطئ المرأة فى دراستها لحالة زوجها ومعرفة ما يُرضيه، ونقرأ فى بيان ذلك ما أرشد إليه الحق سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾[1]. وهنا توجيه أن تقوم المرأة بعلاج ما بينها وبين زوجها، ومجيء كلمة الصلح ثلاث مرات ثم بعدها الإحسان والتقوى دليل على التفاؤل الحَسَن، وتهيئة أسباب النجاح، وعلى المرأة أن تكون عاقلة ولا تهدم بيتها، وإنما تحاول بكل طاقاتها على حَلّ كل مشكلة تعترض مسيرة الحياة الأُسَرية وألاَّ تفشى أىَّ سِرٍّ من علاقاتها مع زوجها لأى شخص مهما كان، وتبذل جهدها المتواصل فى سبيل تدعيم الروابط الأسرية والزوجية.

فإذا لم تقدر الزوجة على الحفاظ على كيان الأسرة وأصر الزوج على الطلاق نقول له: لزوجتك حقوق فلا تكن ظالماً، لأن الظُّلم حرام، والظلم ظُلمات يوم القيامة، وأول شيء عليه أن يدفع إليها حقوقها فى:

١ ـ مؤخر الصداق.

٢ ـ النفقة.

٣ ـ المتعة.

٤ ـ الأولاد.

٥ ـ السكن.

٦ ـ ما لها من متاع.

(١) سورة النساء.

وليكن معلوماً للرجل أن الطلاق من أبغض الحلال إلى الله، لذلك لا يتخذه الرجل سلاحاً يهدِّد به المرأة بين الحين والحين. إن الله سبحانه وتعالى أمر الرجل بمجاملة زوجته والرفق بها، وبذل كل ما يستطيع بذله فى سبيل رضاء نفسها، وأكَّد على ذلك فى الأيام الأولى من الطلاق، وقد قال الله فى بيان ذلك: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾[1].

تلك آيات واضحة المعنى، لذلك مَنْ طَلَّقَ زوجته عليه أن يدفع لها كل حقوقها كاملة، مع مراعاة وضع السكن، وأجرة الرضاع، وكل المسائل المتعلقة بحقها. واقرأ معى كذلك ما قاله ربنا جل جلاله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[2].

لقد فرض الله على الرجل أن يَرُدَّ إلى زوجته ما سمَّاه من مهر، كذلك لا يسترد أى شىء مما استراه لها، لأن الراجع فى هبته كالراجع فى قَيْئِه، والرجل الأصيل يصون زوجته حتى بعد الانفصال عنها، ويُقَدِّر العِشْرَة حتى ولو كان هناك خلاف، فالأمانة لا يُضيِّعها إلا الرجل الخسيس الجبان الذى لا يشعر بالمسئولية. إن نظام الطلاق فى الإسلام لا يدانيه نظام غيره لما اشتمل عليه من دقَّة فى التصرف، وحُسن العلاقة، وكرم النفس، لأن الطلاق يتم فى طُهْر لم يمسَّها فيه، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[3].

ثم هناك وصية للزوجة بألاَّ يشغلها أولادها عن حق زوجها، لأنها قد تنصرف إلى شئون الأولاد، أو تنشغل بالعمل ـ كأن تكون موظفة أو تاجرة ـ أو تهتم بأعمال

(١) سورة الطلاق.
(٢) سورة النساء.
(٣) سورة الطلاق، الآية ١.

الزراعة ومتابعة العمل فى الحقول، ويتأتى من وراء ذلك إهمال الزوج، فإننا نقول لها: إن الأم تُعشِّش على بيتها، وتحتضن أولادها وتضفى عليهم من حنانها، ثم هى لا تهمل زوجها، وإنما عَيْنٌ هنا وعَيْنٌ هناك، ويدٌ هنا ويدٌ هناك، لتستقيم الأسرة بجناحيها، وتعلو في المجتمع بالاستقرار والهناء.

نشوز الزوجة:

قال أحد الحاضرين: يا سيدى، هذا التوضيح من الزملاء ألا تُعَلِّق عليه؟ قلت له: الأدلة واضحة، والكلام متناسق، وفى صميم الموضوع، فعلينا أن نشكر المتحدِّث، ونقول: هل عند أحدكم تعليق؟ قال قائل: وما هو الحُكْم لو كانت المرأة هى الناشز؟ وهنا طلب أحد الحضور الحديث فأذِنَ له.

النشوز حالة من النفور تعترى الزوجة، وقد يكون ذلك بسبب الإرهاق الذى يعتريها، إمَّا بسبب العمل الخارجى، أو بسبب الأولاد ومشاكلهم. وتهيئة أسباب الراحة لهم، وهى بشر، فإذا اعتراها الإرهاق فإن الزوج يجب عليه أن يكون الصَّابِرَ المحتمل، لأنه عَقَدَ على زوجته، وهذا ميثاقٌ غليظ، يتطلب من الزوج أن يكون على درجة من التحمل والرضا بما قسم له الله، وأن يكون كريم العِشْرَة مع زوجته، لأنه ما أهانَ المرأةَ إلا لئيم، وما أكْرَمَ المرأة إلا كريم، والرسول ﷺ قال: «لا يَفْرَكْ[1] مؤمنٌ مؤمنة، إنْ كَرِهَ منها خُلُقاً رضى منها آخرَ»[2].

والمرأة مخلوق من ضلع أعوج، وقد تكون حادَّة الطبع، ثم هى ـ فى الغالب ـ تتأثر عندما تغشاها الدورة الشهرية وتضطرب أعصابها، ويتعكر مزاجها، وتتأزم نفسيتها، لهذا كان المفروض فى الرجل ـ وهو الذى غَرِمَ فى دفع الصداق وتأثيث البيت ـ أن يكون لديه قدرة على التحمُّل والصبر الذى هو ضياء ونور، فعلينا أن نتحمل برضا ليكون لنا عند الله مثوبة أو منزلة نرجو منه سبحانه أن يمنحنا إياها.

(١) لا يفرك: لا يَكْرَه.
(٢) رواه مسلم.

منهج الإسلام فى إصلاح نشوز الزوجة:

فإذا استحكم النشوز من الزوجة فإن الحق سُبحانه وتعالى رسم لنا منهج الإصلاح، ويتلخص فى نقاط ثلاث:

١ ـ الوعظ:

يبدأ الشخص بتوجيه نظر زوجته إلى ما يصدر منها، وينبِّهها إلى أن هذا لا يليق منها، والأَوْلَى بها أن تفعل كذا بدل كذا، وهكذا يوجِّه إليها النصح وتصحيح المفاهيم وبيان ما صَدَرَ منها، وكان الأَوْلَى أن يكون كذا. والنصح والإرشاد والوعظ يكون بالكلمة الهادية والعبارة الواضحة، ولا نظن أنه يعجز فيها، ويستبعد كُلَّ لفظٍ نابٍ أو يخدش الحياء، أو يمسّ الكرامة، وفى هذه الحالة يمكن أن يستعين بأمِّها أو أُختها، أو أحد أقاربها ـ كعمتها أو خالتها أو ما شاكل ذلك ـ فإن استقامت وبدأت تفهم أخطاءها وتصححها فبها ونعمت، وإن كانت الأخرى فيستمر فى النصح ولا يمل، وإذا لم ينفع النصح ينتقل إلى النقطة الثانية.

٢ ـ الهجر فى المضجع:

بمعنى أنه يُظهر لها أنه حزينٌ من تصرفها، ولأنها لم تستجب لنصحه، لذلك فهو يُوليها ظَهْرَه فى النوم، ويحاول أن يبتعد عنها ويحرمها من عطفه لعلها تستشعر سوء تصرفها وتُقلع عمَّا هى فيه، فإن لم تستجب واستمرت فى سوء التصرف فالنقطة الثالثة.

٣ ـ الضرب:

وهو ضرب رقيق برِفْق، غير مبرح، ولا يترك بجسمها أثراً، ويبتعد عن الوجه حتى لا يِشَوِّهَه، وهذا الأسلوب هو أفضل علاج، فهو فى وعظه لها عطوف شفوق، يبيِّن لها ما فى أمرها من أخطاء، وفى مسلكها ما يغضب الله، وهذا التصرف له عواقب سيئة، ثم هو فى وعظه كَيِّسٌ لَبِقٌ صبور، فإن استجابت فبها

ونعمت، وإلا فالهجر، وهو يُريها منه تعالياً عليها، ونفوراً منها، وهذا علاج رادع للمرأة، لأن أعز ما تدلُّ به هو أُنوثتها، وأقوى سلاح تغزو به الرجل هو هذا السلاح فإذا فَلَّهُ وأَرْخَصَهُ وأراه من نفسه صدوداً عنها واستعلاء عليها وقلَّة مبالاة بأنوثتها فذلك أشد ما تشعر به المرأة من هوان واحتقار، وإلاَّ فالضرب. يقول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾[1].

إن الإسلام أمر الرجل أن يكون رفيقاً بشريكة حياته برغم خطئها، ويعتصم بحكمته ورجاحة عقله، وفي نهاية الآية قدَّم احتمال الوفاق ولم يورد كلمة الطلاق، لأن هذا هو الأسلوب الناجح ويؤدى إلى الخير والسعادة لأفراد الأسر، وهكذا، أمَّا إذا استمرت فى الخلاف ولم ينفع معها هذا الأسلوب فإن أمرها يُرْفَع إلى القاضي وهو هنا بالخيار فى التفريق بينهما على أُسس:

١ ـ ليس لها مؤخر صداق، ولا نفقة، ولا أى شيء، لأنها ناشز.

٢ ـ هي تفتدى نفسها بما يُسمَّى بـ «الخُلْعِ» وهو:

الخلـع:

إذا فعل الرجل ما أشار به القرآن، واستنفد كل حيلة معها فلم يستطع علاج النشوز عند زوجته، وتبين أن الزوج ليس فى استطاعته أن يؤدِّبها، فقد أباح الإسلام لها أن تفتدى نفسها وتطلب الطلاق وعليها أن تتحمل عاقبة ما اختارت لنفسها، وعليها أن تردّ كل شيء قدَّمه لها هذا الزوج، إذ ما ذنبه حتى يدفع ويتحمل العبء كاملًا ثم ترفضه؟ والدليل على ذلك من القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾[2].

وقد حدث فى عهد رسول الله ﷺ: أن «جميلة بنت سَلُول» تزوجت من

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

«ثابت بن قيس» فرفعت يوماً جانب الخباء فرأته مُقبِلًا فى عِدَّ رجال، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة، فوقع فى قلبها نفور منه، قال ابن عباس رضى الله عنه: فأتت رسولَ الله ﷺ فقالت: «والله ما أعِيبُ على ثابت فى دين ولا خُلُق، ولكنى أكْرَهُ الكُفْرَ فى الإسلام. لا أطيقه بُغْضاً. فقال لها النبى ﷺ: «أتَرُدِّينَ عليه حديقته؟» ـ وكانت تلك الحديقة هى مهرها الذى أخذته منه ـ قالت: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ حديقته منها ولا يَزْداد»[1]. قال ابن قدامة فى كتابه «المغنى»[2]: «إن المرأة إذا كرهت زوجها لخُلقه أو لخليقته، أو دينه، أو كبره، أو ضعفه، ونحو ذلك، وخشيت ألاَّ تؤدى حق الله فى طاعته، جاز لها أن تُخالِعَه بعوض تفتدى به نفسها منه، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾»[3].

ويقول القرطبى فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن»[4]: «فيقال على جميلة إنها كانت تُبْغِضُ قيساً أشد البغض، وكان يحبها أشَدَّ الحب، ففرَّق بينهما رسول الله ﷺ بطريق الخُلْع، فكان أوَّلَ خُلْع فى الإسلام... إلى أن قال: وهذا الحديث أصْلٌ فى الخُلْع، وعليه جمهور الفقهاء. قال مالك: ولم أزل أسمع ذلك من أهل العلم، وهو الأمر المجمع عليه عندنا، وهو أن الرجل إذا لم يضر بالمرأة ولم يُسِئ إليها ولم يُؤْذِها، وأحبت فراقه فإنه يحل له أن يأخذ منها ما افتدت به نفسها، كما فعل النبى ﷺ فى امرأة ثابت».

ولقد حدث أن امرأة جاءت إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشكت إليه كراهيتها لزوجها، ويظهر أنها كانت من بيئة الرعاة، فأمر بها فباتت ليلة فى مكان قذر، فلما أصبحت قال لها: كيف وَجَدْتِ مكانك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، والله ما رأيت ليلة منذ كنتُ عنده أقَرَّ لعينى من هذه الليلة. فقال عمر للرجل: اخلعها ولو من قرطها[5].

---

(١) رواه ابن ماجه فى «سننه».. باب المختلعة.. ج ١، ص ٦٦٣.
(٢) ج ٧، ص ٥١.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.
(٤) ج ٣، ص١٣٩.
(٥) تفسير ابن كثير، ج ١، ص١٨٥.

ليس في الإسلام ما يسمَّى ببيت الطاعة:

وقد سقنا هذه القصة لنقول بأن «بيت الطاعة» خطأ، وعلى ولى الأمر «القاضى» أن يأمر بالخُلْع إن كانت هى الناشز، أما إنْ كانَ الزوج فعليه العزم فوراً، ولا داعى لتكديس القضايا وتعطيل المصالح ووقف الحال، وَتَرَدُّد المرأة مع أولادها أمام المحاكم ببكاء وعويل، إن الأمر فى الإسلام سهلٌ، إمَّا خُلْع، وإمَّا حُكْم فوراً، ولا ثالث لهما ولا تسويف. إن القاضى بفراسته يستطيع أن يختبر حقيقة القضية المعروضة عليه، وهو يعلم أن طبائع الناس مختلفة، وأذواقهم متباينة، ومشاعرهم متفاوتة، وما يصلح لشخص لا يصلح للآخر، وأن فساد الذمم وخراب الضمائر يجعل القاضى يضرب بيد من حديد، إمَّا على الزوج، وإمَّا على الزوجة، وأن يراعى ظروف الأولاد، وأنّ التسويف يُعرِّض الأولاد للأخطاء والانحراف، علماً بأن الشهود فى قضايا النفقة قد يستأجرهم الخصم مِنْ على باب المحكمة، وهم يترددون للشهادة في أكثر من قضية أمام قاضٍ واحد، وكل ذلك يحتاج إلى قاضٍ عادل يحكم بروح القانون ويستعمل فراسته وذكاءه وخبرته، حتى تُنهى تلك المأساة التى أصبحت قنبلة موقوتة يخشى أن تنفجر فتدمِّر من يحيط بها وتأتى على الجميع بما لا تُحْمَد عقباه.

إن بيت الطاعة يجب أن يُلْغَى فوراً ولا يحكم به قاضٍ، لأنه مهانة، وليس فى الإسلام ما يشير إلى شرعيته. قال ابن قدامة: إذا وقع بينهما ـ أى بين الزوجين ـ شقاق نَظَر الحاكِمُ، فإنْ بانَ له أنه من المرأة فَهُوَ نشوزٌ قد مضى حُكْمُه، وإن بانَ له أنه من الرجل أسكنهما إلى جانب ثقة يمنعه من الإضرار بها، وكذلك إنْ بانَ من كل واحد منهما تَعَدٍّ، أو ادَّعى كل واحد منهما أن الآخَرَ ظَلَمَهُ أسكنهما إلى جانب من يُشرف عليهما، ويلزمهما الإنصاف، فإنْ لم يتهيأ له ذلك وتمادَى الشر بينهما وخِيفَ الشقاق عليهما والعصيان بعث الحاكم حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها[١].

---

(١) «المغنى» لابن قدامة، ج ٧، ص ١٨.

إن علماء الإسلام بما لهم من فقه دقيق يرون أن تكون الحياة الزوجية تحت إشراف ولى الأمر يسوسها بما يَرَى فيه مصلحة الأسرة والمجموع، وإن ما رسمته الشريعة من منهج هو أسلم الطرق للعلاج الأُسَرِى وأحسن السُّبُل، هذا وولى الأمر هنا هو القاضى الذى أقامه الحاكم ـ ولىّ الأمر ـ فى هذا المكان ليتولى فض المنازعات، ويا ليت القاضى يعود إلى نظام الحَكَمَيْن ووضْع الأُسس والمعايير لرأب الصَّدْع الذى حَلَّ بالأسرة، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾[2].

أبغض الحلال إلى الله:

تلك هى قاعدة الحياة الزوجية فى الإسلام: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ فإن مُحِيَتْ آية المعروف فدبَّت النعرة، وساءت العِشْرة، واتَّسَعَ الصَّدْع، وامتنع التوفيق ـ سواءً كان ذلك من الزوج أو الزوجة، أو هما معاً ـ فما هناك خير فى تلك الحياة، وما هناك فَضْل فى الإبقاء عليها، وقد جعل الله الزواج مبعثُ وِدٌّ ومصدر رحمة، لا مصدرَ تعاسة وبؤس، من هنا أُبيح الطلاق. على أن الإسلام لم يدع ذلك الحق دون أن يضيِّق مذاهبه ويأخذ على النفس سبيل الوصول إليه، ولهذا نص على المُطَلِّقين وبَيَّنَ لهم أنه أبغض الحلال إلى الله.

وقد ورد: «لا تُطَلِّقُوا النساء إلا من ريبة، فإن الله لا يُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ ولا الذَّوَّاقات».

شهور العِدَّة:

فإن وقع الطلاق للمرة الأولى، فقد جعل الله للمرأة بعد الطلاق عِدَّة تعتدُّها فى بيت الزوج، والعدة ثلاثة أشهر لمن لا تحيض لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ

(١) سورة المائدة.

(٢) سورة النساء.

﴿ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾(١). أما التى تحيض فعدتها ثلاثة قُروء لقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(٢). وعِدَّة الحامل حتى تضع حملها، وفى أثناء تلك المدة ربما يُراجع الرجل نفسه، وتفىء المرأة إلى عقلها، فإن فاءَ راجَعَ الرجل زوجته، وكان ذلك خيراً وأبقى، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ①﴾(٣). والأمر الذى لعل الله يُحْدِثُه هو مُعاوَدة الرأى: ومراجعة النفس بعد رياضتها وردّ جماحها وإسلاس قيادتها بعد ذلك الهجر القصير، فإذا استكملت العدَّة فله أن يعيدها إلى فَيْئه، أو أن يَبُتَّ فى فراقها إنْ لم يكن إلى التوفيق سبيل، وذلك حيث يقول الله جَلَّ شأنه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾(٤).

والطلاق هو انفصال الزوج عن زوجته، وفَصْم الرباط الذى يجمع بينهما على سُنَّة الله ورسوله، وانفصال الإنسان عن سُنَّة الله هو انفصال عن أسباب صلاحهن، ونظام أُلفته وسكنه، والزواج رابطة أُلفَة ومحبة ومودة، والعَقْدُ هو ميثاقٌ غليظٌ أُخِذَ على الرجل ليحافظ على كيان الأسرة وعدم الإقدام على فضّ العروة التى جمعتهما. ونَقْض الميثاق يتنافى مع ما لِسُنَّةِ الله من مضاء وهيبة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: «ما بال أحدكم يلعب بحدود الله يقول: قد طَلَّقْتُ قد راجَعْتُ»(٥)، وقال لرجل طَلَّق زوجته لغير سبب: «أَيُلْعَبُ بكتاب الله وأنا بين

(١) سورة الطلاق، الآية ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.
(٣) سورة الطلاق.
(٤) سورة الطلاق، الآية ٢.
(٥) رواه ابن حبّان.

أظهركم؟»[1]، ويقول: «ما خَلَقَ الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق»[2]، ويقول: «أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطَّلاق»[3]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «تزوَّجوا ولا تُطلِّقوا فإن الطلاق يهتز منه عرش الرحمٰن»[4].

إن الإسلام يضيِّق منافذ الطلاق ولا يجعله أُلعوبة وسلاحاً للتهديد، لأن الإسلام يريد للأسرة أن تتماسك وتتعايش في جو من الأمن والسلام، قال الجَصَّاص عند تفسير قول الله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[5]، يدل التوجيه على أن الرجل مندوبٌ إلى إمساك زوجته مع كراهيته لها، لأنّ الله يعوِّضك عن ذلك الكثير، والزوجة قد تكون سيئة الطبع حمقاء، يفتقد الرجل معها سَكَن النفس، وأُلفة الشمل، لأنها دائمة الإثارة، نَزّاعة إلى التكدير، لا تُساس بمنطق، ولا تستقر على وُدٍّ، فإن العلاج هو الطلاق، مع علمه بأنه أمر خطير أباحه الإسلام للضرورة حتى لا يغشاه الشخص إلا وهو مضطر، لعلمه بقول الرسول ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق». ثم إن آخر العلاج الكَيّ، وفي قول الرسول ﷺ: «لا تُطلِّقوا النساء إلا من ريبة»، الريبة هنا هي الطبع المثير للشر، والسوء الموجب للقلق والانزعاج، إنَّ الطلاق قد يكون علاجاً ناجحاً لإنهاء مظاهر الشقاء العائلي، وإنه إذا لم يُبَح كان الشقاء المخيم على بعض الأُسَر أوسع وأعم، ثم إن الإسلام اعتبر مَنْ يسعى للتفريق بين الزوجين المؤتلفين مرتكباً ذنباً عظيماً، وجريمة لا تغتفر، بل ارتكبَ كبيرة من الكبائر، حتى ولو كان الساعي أباً أو أُمّاً. يقول الإمام الحسين لرجل يسمى «ذريحا» سَعَى في التفريق بين ولده «قيس» وزوجته، فقال له: «أما سمعت كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لرجل فعل فعلتك: ما أبالي، أفرَّقت بين الرجل وزوجته أو مشيت إليهما بالسيف»، يريد أنه بفعله هذا قد قتلهما قتلًا، فليحذر من يُغَرِّر بالمرأة

---

(١) رواه النسائي.

(٢) رواه الدارقطني.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) أخرجه الديلمي.

(٥) سورة النساء.

المتزوجة ولتفر هى من شيطان الإنس الذى يُزيِّن لها هجر بيت الزوج لأنه سيسعدها، وهذا غباء وظلم عظيم، والمرأة الحمقاء هى التى تستجيب لهذا الأفَّاك الذى سيهرب منها بعدما ينال منها ما يريد.

الظِّـهـار:

لا تستطيع المرأة أن تؤدى دورها كاملًا فى الحياة إلا إذا وضعناها فى مكانها الصحيح، وتعاملنا معها من خلال القِيَم النبيلة والآداب الاجتماعية المتَّسِمة بالخُلُق والاحترام، لأنها شقيقة الرجل وتَوْأم نفسه، ومربية أولاده، وحافظة بيته. ثم إن الإسلام رفَعَ قدرها وأحاطها بسياج من الرعاية التامة، لذلك نبَّه الإسلام على محو التقاليد والعادات التى اختلطت بمفاهيم الدين وانحرفت بالمسلمين عن الموقف الصحيح للإسلام، فعلينا أن نُزِيل عن المرأة المسلمة التقاليد البيئية الظالمة التى يتعامل بها البعض على أنها من الإسلام.. لا بد أن نراجع مواقفنا الظالمة من المرأة ومن التعامل معها على أنها مسلوبة الإرادة، وليس لها مهمة فى الحياة إلا خدمة زوجها وتحقيق رغباته، وإلاّ فالويل لها.. لا بد أن نعيد للمرأة كيانها الاجتماعى والفكرى والثقافى، حيث إن المرأة فى عهد رسول الله ﷺ خرجت معه مشاركة فى الغزوات، وشاركت فى أعمال كثيرة، وكان لها رأيها وفكرها ومواقفها العظيمة، ولم ينكر عليها أحد، بل تبارى الجميع فى توفير المناخ المناسب لها فى حدود الآداب الدينية والقِيَم الإسلامية.

ولقد حافظ الإسلام على إنسانية المرأة ونَهَى عن ظُلْمها، من ذلك مثلًا «الظهار»، وهو أن يقول الرجل لزوجته: «أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّى»، وبهذا تَحْرُمُ عليه، وفى نفس الوقت ليست مطلقة حتى تتصرف على أنها مُطَلَّقَة لكنها بهذا تكون مُعَلَّقة، وهذا ظلم لها وغَبْن، والإسلام يرفض هذا الفعل الذى كان شائعاً فى الجاهلية، ولقد عالج الإسلام هذا الوضع الضار. فَخَوْلَةُ بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ظاهَرَ منها زَوْجُها «أَوْس بن الصامت»، وحَدَثَ هذا منه على إِثْرِ مُراجَعَة بسيطة لخولة، وكان كبيراً مُسِنًّا، سَيِّئ الخُلُق، سريع الغضب، وقد نَدِمَ بعد أن

صَدَر منه هذا القول لأن هذا الظِّهار كان فى الجاهلية محرماً على التأبيد، لأنه جعل زوجته كأُمِّه، ولا يليق بالإنسان ـ مهما كان ـ أن يمَسَّ أُمَّه أو يقربها، وقد أراد، «أوس» أن يقربها فَأَبَتْ وقالت: والله لا تَصِلُ إلىَّ وقد قُلْتَ ما قُلْتَ حتى يَحْكُمَ الله ورسوله فى أمرنا. فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، إنَّ أَوْساً تزوَّجنى وأنا شابَّةٌ مرغوبٌ فىَّ، فلما خَلَا سِنِّى ونَثَر بطنى جعلنى كأُمِّه وتركنى إلى غير أحد[1]، فإن كنتَ تجد لى رخصة يا رسول الله تنعشنى وإياه فحدِّثْنى بها. فقال رسول الله ﷺ: «ما أراكِ إلاَّ قد حَرُمْتِ عليه، وما أُمِرْتُ فى شأنك بشىء حتى الآن»، قالت: ما ذَكَرَ طلاقاً، وصارت تُجادل رسول الله ﷺ فى ذلك مراراً وتقول وهى تبكى: «إنَّ لى منه صِبْيَةً صغاراً إنْ ضَمَمْتُهُمْ إليه ضاعوا، وإنْ ضَمَمْتُهُم إلىَّ جاعوا»، وجعلت ترفع وجهها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك شدة وَحْدَتى وفاقتى، وما يشق علىَّ من فراقه. اللهم فَأَنْزِلْ على لسان نبيِّك فرقاناً، فما بَرِحَتْ حتى نزل قول الله سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾[2]. وبعد نزول هذه الآيات قال رسول الله ﷺ: «أَبْشِرِى يا خولة»، ثم قرأ عليها ما نزل من عند الله. وكان هذا أَوَّلَ ظهارٍ حَدَث فى عهد النبى ﷺ، ولا يعرف الناس حكم الإسلام منه حتى نزلت هذ الآيات.

ولن نترك هذا الحادث يمرّ دون أن نقول: تعلَّموا يا قوم احترام المرأة فى حدود الآداب العامة ، فهذا ربُّ العزة يُجيب المرأة على سؤالها وهذا دليل على

(١) خلا سِنِّى، أى: ذهبَ ومَضَى شبابى. ونثر بطنى: كثر ولدى. وفي رواية: «أكَلَ شبابى ونثرتُ له بطنى، حتى إذا كَبِرَتْ سِنِّى وانْقَطَعَ وَلَدِى ظاهَرَ مِنِّى».

(٢) سورة المجادلة.

احترام الإسلام لرأيها. وأصبحت آيات الظهار من آثار الفكر النسائى ومن عناية الإسلام بشأن المرأة، وحتى لا تُضارَّ بهذا الزوج الذى رَدَّدَ عبارات كانت تقال فى الجاهلية فتفتح لها أبواب الأذى والضرر بسبب سوء خُلُق الرجل.

إنَّ الظهار الذى كان يُسيء إلى المرأة حدد الله أسلوب علاجه، لذلك علينا ألَّا نتسرَّع ونُصدر أحكاماً على المرأة ليست من طبيعة ديننا، لأن الواقع الاجتماعى وما فيه من بعض التجاوزات ومخالفات يجعلنا نغالى ونتشدد فى الأحكام، وذلك يعطى الفرصة لخصوم الإسلام كى يجسِّدوا هذه الأخطاء وينسبونها إلى الإسلام، وهو من ذلك بريء، فالإسلام يحكم على الناس وليست أعمال الناس هى الحُكم على الإسلام.

طلاق السُّنَّة وطلاق البدعة:

وإذا كان بعض الناس يجهلون الوقت الذى يتم فيه إيقاع الطلاق ـ لأن هناك وقتاً يحرم فيه الطلاق ـ لذلك لزم أن نوضح الأمر الذى يقرره الإسلام فى هذا المضمار، وهو أنه لا يحل تطليق المرأة وهى حائض، كذلك لا يحل إيقاع الطلاق فى طُهرٍ جامَعَها فيه، وذلك لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[1]. وقد فسَّر رسول الله ﷺ ذلك عمليًا فى واقعة جرت لعبد اللّه بن عمر رضى الله عنهما مع زوجته، وذلك أن رسول الله ﷺ حينما عَلِمَ أن عبد اللّه طلق امرأته وهى حائض لم يوقع هذا الطلاق وقال: «لِيُراجِعْها، ثم يُمْسِكْها حتى تطهر ثم تحيض ثم تَطْهُر، فإن بَدَا له أن يُطلِّقها طَلَّقَها طاهراً قبل أن يمسَّها، فتلك هى العدَّة التى أمر الله بها فى قوله: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[2]».

يقول الصنعانى فى كتاب «سُبُل السلام»: وفى قوله ﷺ: «حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر»، دليل على أنه لا يطلِّقها إلا فى الطُّهْر الثانى، والغرض من ذلك: ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾، لأن حال المرأة يدور بين طُهْر وحيض،

(١) سورة الطلاق، الآية ١.

(٢) سورة الطلاق، الآية ١. والحديث رواه الجماعة إلاَّ الترمذى.

فإذا طلَّقها وهى حائض فقد ظلمها، لأن مُدَّة العدَّة تطول، وهذا حرام، وإن طلَّقها فى طُهْرٍ ضاجَعَها فيه فهذا أيضاً حرام، والمطلوب عند الطلاق أن يُطلِّقها فى طُهْر لم يُجامعها فيه، والغرض من ذلك أن الرجل عندما ينوى طلاق زوجته بعد أن استنفد كل الوسائل وهى فى طُهْر ربما تتحسن خلالها الأحوال، وتتغير الأمور، لاعتبارات وخواطر نفسية، فتنصرف النية إلى دوام العِشْرَة، وهذا ما يهدف إليه الشارع الحكيم.

إن طلاقَ «السُّنَّة» يتم والمرأة طاهرة لم يمسَّها زوجها، فتكون بذلك مستقبلة للعدَّة التى لا تطول عليها.

أمَّا طلاق «البِدْعَة» فهو إيقاع الطلاق أثناء الدورة الشهرية، أو فى طُهْرٍ جامَعَها فيه، وهو حرام، وهو يقع، لكن الرجل يكون قد ارتكب مُحَرَّماً. ولكن ابن حزم قال: إن الطلاق البدعى لا يقع، مستدلاً بحديث رسول الله ﷺ عن ابن عمر، بعد أن طلَّقَ زوجته وهى حائض، فقال له رسول الله ﷺ: «ليس ذلك بشىء».

كما أن الإمام الشوكانى ـ فى كتابه «نيل الأوطار» ـ رجَّحَ رواية القائلين بعدم وقوع الطلاق البدعى، وهذا الرأى ذهب إليه الصنعانى ـ فى «سُبُل السلام» ـ وحجَّتهم فى ذلك أن الله حرَّمَ الطلاق البدعى، فهو ليس من إذْنه ـ سبحانه وتعالى ـ ولا من أمْرِه، وما كان كذلك فهو مردود لا يُؤْبَهُ به، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»[1]. وعَلَّلُوا ذلك بأن الطلاق البدعى منسوب إلى البدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار، والضلالة لا تدخل فى نفوذ حُكم شرعى. وهذه آداب على المسلم أن يراعيها ليعيش المجتمع أكثر ثباتاً واستقراراً.

عدد مرات الطلاق:

الطلاق الذى يجوز للرجل أن يراجع زوجته بعده مرتان متفرِّقتان يقول الله

(١) رواه البخارى فى باب الاعتصام وغيره، ورواه مسلم فى «الأقضية»، كما رواه الدارمى وابن ماجه.

تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾[1]. فإن طلقها مرة ثالثة فلا يجوز له أن يراجعها حتى تتزوج غيره زواجاً صحيحاً ليس محدداً بوقت، بل تكون النية في الزواج على سبيل التأبيد، فإن طُلِّقَتْ جاز لزوجها أن يُراجعها بعقد ومهر جديدين، لقول الله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾[2]، على أن تُراعي العِدَّة بالنسبة لمن تحيض ثلاثة قروء، ولمن لا تحيض ثلاثة أشهر.

المُحَلِّل[3]:

بعد الطلاق الثالث (اليمين بالطلاق) يشعر الزوج بأن حياته البيتية في خطر، وأن الاضطراب الاجتماعي سيؤدي إلى انهيار الأسرة، وتشتيت الأولاد، وتصدُّع الروابط، فيُشار على الرجل بأن يبحث عن زوج صُوري يحل المشكلة، ويتزوجها هذا الرجل بِنِيَّةٍ مؤقتة، وهذا ما يُسَمَّى بـ«المُحَلِّل»، وهذا حرام.. ويقول الزوج الصُّوري: أنا أُقدِّم خدمة لصاحبي وأتزوجها مؤقتاً لتحلَّ المرأة لزوجها، وهذه مهزلة تتم باسم الإسلام، والإسلام منها بريء، لذلك وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تَلْعَنُ مَنْ فَعَلَ هذا، وشاركَ فيه، وحَضَرَه وأقرَّه، فعليهم اللعنة حيث أقرَّا الزِّنى برضاهم، قال ﷺ: «لَعَنَ الله المُحَلِّلَ والمُحَلَّل له»[4]. وفي حديث آخر، قال ﷺ: «ألا أخبرُكم بالتَّيْس المُسْتعار؟»، قالوا: بَلَى يا رسول الله. قال: «هو المُحَلِّلُ، لَعَنَ الله المُحَلِّلَ والمُحَلَّل له»[5].

العِـدَّة:

عندما يقع الطلاق فللمرأة عِدَّة، وهي بمثابة مرحلة انتقال، حتى نضمن براءة

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٣٠.

(٣) المُحَلِّل: مُتَزوِّج المُطلَّقة ثلاثاً زواجاً مؤقتاً لتحِلَّ للزوج الأول.

(٤) رواه أحمد.

(٥) رواه الحاكم.

الرحم من الزوج الذى طَلَّق، وفى أثناء العِدَّة لا يتصل بها زوجها اتصالَ مُعاشَرَة، لأنها تحلَّلَتْ منه وانفصلت عنه، وهى فى انتظار إنهاء العدة التى لها أحوال، أهمها:

١ ـ **إذا طلَّق الرجل زوجته قبل الدخول بها:** فهذه لا عِدَّة لها، فيحق لها أن تتزوج فوراً، المهم ألاَّ يكون دَخَلَ بها ولم يَخْتَلِ بها خلوة شرعية بعد العقد عليها، فهذه بَيَّنَ الله حُكمها فى قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ ﴾[١].

٢ ـ **أن تكون المطلَّقة ذات حيض:** وهذه عدَّتها ثلاث حيضات، أو ثلاثة أطهار، لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ ﴾[٢]، والقُرْء يُطلق على الحيض، كما يطلق على الطُّهْر.

٣ ـ **أن تكون المطلَّقة حامِلاً:** وهذه عدَّتها بوَضْع الحمل، فتنتهى العدَّة بعد الوضع مباشرة، وإلى هذا أشار الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾[٣].

٤ ـ **أن تكون المطلَّقة يئست ولا ينزل عليها دم الحيض، وذلك لكبر سنَّها، أو هى صغيرة لم تَحِضْ بعد:** وهذه عدَّتها ثلاثة أشهر، لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ ﴾[٤].

المرأة أثناء العدَّة:

والمرأة فى عدَّتها ليست زوجة، وفى الوقت نفسه ليست أجنبية عن مطلِّقها، بل هى بين بين، لأنه يجوز للزوج أن يُراجعها، لذلك لا يحق لها ولا يجوز أن تتزوج بآخر أثناء العِدَّة، وإنْ تزوجت فالعقد باطل، وهى فى أثناء العدة تُعَدُّ فى مرحلة انتقال، وعليها ما يأتى:

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٩.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.
(٣) سورة الطلاق، الآية ٤.
(٤) سورة الطلاق، الآية ٤.

١ ـ لا يجوز لها أن تخرج من منزل الزوجية إلا لضرورة ظاهرة.

٢ ـ تبقى في منزل زوجها، وليس للمطلِّق أن يُخرجها منه ما دامت في أشهر العدة، وقد أشار القرآن إلى ذلك بصريح العبارة، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾[1].

إن القرآن سمَّى البيت بيتها لأن الرجل ربما يعاود نفسه وتفيء المرأة إلى صوابها، فإذا استكملت العدة ولم يفيئا إلى أمر الله ولم تتم المراجعة فيبتُّ الرجلُ في الأمر، وتعود هي إلى بيت أسرتها، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ﴾[2]، كما يجوز لها أن تتزين أثناء العدة ـ وهي في المنزل ـ وتتعطر لاستمالة زوجها وطمعاً في مَوَدَّتِه، وجلباً لما فقدته من ارتباطه بها.

٣ ـ إذا ماتت أثناء العدة وَرِثَها زوجها، وإذا مات هو ورثته كذلك.

٤ ـ إذا انتهت العِدَّة ولم يراجعها صارت أجنبية عنه، لا تحل له إلا بعقد جديد، وهي بالخيار: إنْ شاءت قبلت وإلا رفضت، وهذا حقها، ولا سلطان لأحد عليها إلا وليِّ الأمر بعد التشاور معها والأخذ برأيها، فهي أَحَقُّ بنفسها، وأَعْرَفُ أين تكون مصلحتها.

إن الإسلام فتح باب الرجعة في أيام العدة، لأن الرجل ربما يشعر بفراغ ووحشة لفراق زوجته، ويشده الحنين إلى أيام الترابط، وأنه أصبح في قلق وحيرة ومشقة، وفي حالة لا صَبْرَ له على مواجهتها إلا إذا عادت المياه لمجاريها وتم الوفاق، وأنه لم يكن يتصور أن طلاق زوجته سيسلِّمه إلى تلك الحالة، فاقتضت حكمة الله ورحمته أن تكون هناك مساحة زمنية يتيح له وَصْلَ ما انقطع من حياة الاستقرار، فإن رأى أن الأصلح طلاقها فليكن بالمعروف والتراضي.

(١) سورة الطلاق، الآية ١.
(٢) سورة الطلاق، الآية ٢.

وهذا ما استقر عليه الأمر فى موضوع الطلاق: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾. والمطلقة فى كل ذلك لها كرامتها ومكانتها، ولا ينتقص ذلك من قَدْرها، فرسولنا ﷺ تزوج نساءه كلهن ثيبات، ولم يتزوج ببكر إلاَّ السيدة عائشة رضى الله عنها، فأنتِ يا أُختاه لا لَوْمَ عليك ما دُمْتِ قد التزمتِ بالمنهج الإسلامى ولم تطلبى الطلاق من زوجك، ثم غَدَرَ هو بك، فَلْيَلْقَ مصيره، وعليكِ أن تلزمى بيتك، ولتكن زياراتك للأهل والأصدقاء فى ضوء النهار وواضحة، وأحاديثك ملتزمة بالجدية، ولا تسمحى لأحد أن يتردد عليكم مهما كانت قرابته، لأنك لا تعرفين النفوس، وبلا شك هناك نفوس خبيثة، فخذى حذركِ وكونى دائماً على ثقة فى عون الله ونصره، لأنه سبحانه لا يتخلَّى عن أوليائه، فكونى صَوَّامَة قَوَّامَة، تُحافِظين على حدود الله، وتلتزمين بتوجيهاته، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[1]، واعلمى يا فتاتى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[2].

سلوك الزوجين بعد الطلاق:

إذا انتهت الحياة الزوجية وتفرَّق الزوجان فإن المرأة يجب عليها أن تحفظ الودَّ، وتصون الستر، ولا تفضى بأى شىء كان بينها وبين زوجها، وهو كذلك، لأنه لو كان بينهما أولاد فلا يكشفان المستور حفاظاً على علاقة أبنائهما وصوناً لهم، خاصة المرأة، فهى مَنْبَتُ فتيان العرب ومعقدُ فَخْرهم، وفخرُ الابنِ وعزُّ الأهل. وحميد بالمرأة أن تُعاشر زوجها على الوفاء فإن طُلِّقَت فعليها أن تفى له بعد ذلك، فتذكر له ولأهله الخير، وهو كذلك. فقد حدَّثوا أن امرأة عُرْوَة بن الورد العبسى قامت فى نادى قومه ـ بعد أن طلقها ـ فقالت تخاطبه: «أَمَا والله إنكَ للضَّحُوكِ مُقبلًا، السكوتُ مُدبراً، خفيف على ظَهْر الفَرَس، ثقيلٌ على متن العدوّ، رفيع العماد، كثير الرماد، ترضى الأهل والأجانب»، قالوا: فتزوجها رَجُلٌ بعده،

(١) سورة الحج، الآية ٤٠.
(٢) سورة النحل.

فقال لها: أَثْنِى عَلَيَّ كما أثنيتِ على «عُرْوَة»، قالت: لا تحوجنى إلى ذلك فإنى إن قُلْتُ قُلْتُ حَقًّا، فأَبَى عليها، فقالت: «إنَّ شِمْلَتَك الالتفاف[1]، وإنَّ شربتك الاشتفاف[2]، وإنك لتنام ليلةَ تخاف[3]، وتشبع ليلةَ تُضاف[4]».

كما أن رجلًا من بنى غدانة تزوج بامرأة من جَعْدَة، ثم وَقَعَ بين الحَيَّيْن خلافٌ حَتَّمَ عليه أن يُفارق زوجته، فَمَسَّهُ من ذلك هَمٌّ وغَمٌّ، فلما اعتزمت الرحيل قال: «استمعي ويسمعُ مَنْ حضر، أما لقد اعتمدتُكِ برغبة، وعاشرتُكِ بمحبة، ولم أجد عليك زَلَّة، ولم يدخلنى منك مَلَلٌ، كان ظاهرك سروراً وباطنك للهوى، لكنَّ القَدَرَ غالبٌ، وليس له صارف». فقالت المرأة مجيبة له: جُزِيتَ مِنْ صاحبٍ ومَصْحُوبٍ خيراً، فما استربتُ خيركَ، ولا شكوتُ ضَيْرَك، ولا تمنَّتْ نفسى غيرك، وما ازددتُ إليكَ إلا شَرَهاً، ولا أحسستُ لك فى الرجال شبيهاً»، ثم افترقا.

كما حدَّث المدائنى قال: تزوج «حِصْن بن حُلَيْد» ببنت الورد بن الحارث، ثم طلَّقها، فجاء إخوتها ليحملوها، فقالت: مُرُّوا بى على مجلس الحى أُسَلِّمُ عليهم، فنعم الأحماء كانوا، فأقبل هو وهى فى قُبَّتِها، فقالت: «جزاكم الله خيراً، فما أكرم الجِوار، وأكفَّ الأذَى»! قالوا: فما الذى كان عن ملأ منَّا ولا هوى؟ فقالت: «اللهم إنى لم أُطَلَّقْ من بُغْضٍ ولا قِلًى، فعليكم السلام»[5].

لا إكراه فى الإسلام:

ويلاحظ أنه فى عصرنا هذا لجأ البعض إلى إكراه المرأة للدخول فى طاعته، حتى ولو كان ذلك عن طريق المحكمة بما يُسَمَّى ببيت الطاعة، وهو مرفوض

(١) الشِّمْلَة، بكسر الشين وسكون الميم: هيئة الاشتمال بالشَّمْلة - بفتح الشين - وكانوا يعيبون على الرجل أن يلتفَّ بها ويعدُّون ذلك من اللؤم.

(٢) الاشتفاف: أن يشرب الرجل جميع ما في الإناء، وهذا مِنَ البُخْل.

(٣) ليلة تخاف، أي: ليلةَ أنْ يُنادَى عليكَ لتذهب إلى الحرب، فتخاف أن تخرج، وتتوارى عن العيون.

(٤) أي: تشبع لتنام نوماً ثقيلًا حين يضيفونك.

(٥) انظر: «بلاغات النساء»، ص ٨٧.

مرفوض، ولا ندرى كيف يَحْكُم به القضاء وهم يعلمون أن الحياة الزوجية تقوم على الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة، مع سيادة روح المودَّة والمحبة والرحمة حياتهما المفترض أن تقوم على الرعاية الكاملة لاستقرار الحياة الزوجية ليتحقق الهدف من الزواج، ويشعر كل فرد بالسكينة النفسية والاستقرار العاطفى، وفى سبيل ذلك حدد الإسلام لكل طرف من الطرفين ما عليه من واجبات تجاه الطرف الآخر، فإذا دبّ الخلاف بينهما واستعصى الصلح فيفترقان وهما على وُدٍّ واحترام متبادل، ورعاية كل منهما لذمّة الآخر.

فإذا حاول الزوج إجبار زوجته على العيش معه وإمساكها بِكُرْهٍ وفرض عليها الدخول فى طاعته طبقاً لقانونٍ ظالم، فإننا نقول له: هذا حرام حرام.. إن الإسلام جعل الطلاق فى أضيق الحدود وفى نهاية المطاف بعد أن تفشل كل المحاولات فى التوفيق، وقرر أنه أبغض الحلال إلى الله.

لكننا مع الحرص على استقامة الحياة الزوجية فإننا لا نفرض ذلك بقانون يُخالف الشرع والعُرْف، وتتكدس المحاكم بالمتخاصمين ويطُول الخصام، ويتخذه أعداء الإسلام شوكة فى ظهر المجتمع ليطعنوا فى الإسلام ونُظُمه.. وهو برىء من ذلك.

إن قانون الطاعة وَضْعٌ شاذ، ولا ندرى كيف رَضِيَ به رجال القضاء وهم يعلمون أن المرأة تستجيب له مضطرة، لأن الشرطة تطاردها، وهى فى حاجة إلى النفقة، وعلمهم كذلك بأن الرجل أَعَدَّ مسكناً لا يرضى به الإنسان لإنسان، فما بالك بزوجة لها مكانتها واحترامها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[1]، وهل يرضى القاضى أن يكون هذا السكن لابنته أو أخته أو إحدى معارفه؟ ثم يعاملها معاملة غير إنسانية ويَتَناسى هؤلاء جميعاً قول الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾[2]. هذا أدب الإسلام، فإن أراد القاضى أن يحكم ببيت الطاعة فعليه أن يُعلن أن ذلك ليس من الإسلام، وإنما

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(٢) سورة الطلاق، الآية ٦.

هو وضع شاذ فى مجتمع مسلم، لكنَّ القانون فَرَضه، وكان الأَوْلى بنا أن نتجنَّبه حتى لا نُشَوِّه صورة الإسلام، وحتى لا نُسِيءَ إلى المرأة ونطعنها فى حريتها باسم الإسلام البرىء من ذلك.

إن الزوجة التى تدخل فى طاعة زوجها رغماً عنها وإكراهاً لها، لا شك أنها تفكر فى خلاص نفسها إمَّا بالتآمر على قتل زوجها والتخلُّص منه، أو خطف أحد أبنائه من زوجته والقضاء عليه، أو تخونه، والرجل الذى عنده شرف وكرامة لا يقبل أن يُقَيِّدَ زوجته وهو يعلم مسبقاً ما تضمره المرأة ـ وكيدهن عظيم ـ لذلك نقول ما قاله ربنا: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

إن الإسلام احترم مشاعر المرأة وجعل أمرها فى الزواج لنفسها، وليس لأهلها أن يستاقوها قهراً إلى شخص لا ترغبه. ولقد أبت الخنساء بنت عمرو بن الشريد أن تُساقَ إلى دُرَيْد بن الصِّمَّة ـ وكان سيد قومه وفارسهم وشاعرهم ـ لما بينهما من تفاوُتٍ فى السن، مِمَّا يعكر صفو العيش، ويسىء طَبْع العشير. وتأمل هذا الحديث: «جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبى زَوَّجَنى ابنَ أخيه ليرفع بى خسيسته، فجَعَلَ النبيُّ ﷺ الأمْرَ إليها، أى جعل لها الحق أن تقبل أو أن ترفض إنْ شاءت أَقَرَّتْ ما صنع أبوها، وإنْ شاءت أبطلته. فقالت: قد أَجَزْتُ ما صَنَعَ أبى، ولكنْ أردتُ أن أُعْلِمَ النساءَ أن ليس إلى الآباء من الأمر شىء»[1].

إن المرأة إذا سُلبت حريتها، وفقدت رأيها، وحُرمت نصيبها من الوجود، وَوُسِمَتْ بوسامٍ من الذلِّ والهوان، لا تكون امرأةً فاضلة، لأن المرأة إذا استشعرت المهانة[2] هانت عليها نفسها، وعندئذ لا تمتنع عن دَنِيَّةٍ، ولا تعتصم عن منقصةٍ[3]. إن الكذب والخديعة والخيانة لا تجد السبيل إلى قلب المرأة الكريمة العزيزة، لأنها تسمو بنفسها حيث نشأت ونشأ معها نصيبها من عِزَّة الجانب، وأدب

(١) رواه أحمد والنسائى.
(٢) استشعرَ الشيءَ: أَحَسَّ به.
(٣) المنقصة: النقيصة، والخصلة الذميمة.

الدين، وخُلُق العشيرة، ومن ذلك ما يمنعها عن الانحراف، لفرط ما طُبِعَتْ عليه منذ نشأتها من صفاء الفطرة، وسماحة الخُلق، وكرم التأديب، ومن أمثلة النساء فى ذلك: «المَنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّةُ»[1].

إن الرجل المسلم كان يجعل زوجته العشير القريب، والمشير الأمين، فهو يسمع لكلامها، ويطمئن إلى رأيها، وكان يعزُّ عليه أن تطلب منه شيئاً فلا تُجاب.

أَلَمْ يَئِنْ للمسلمين أن يفهموا أمور دينم، ويُطبِّقوا نُظُم وتعاليم إسلامهم، وأن يبتعدوا عن تطبيق قانون سيِّئ السمعة، ضرره أكثر من نفعه، ولا يتفق مع دين ولا عادات ولا عُرْف المجتمع الشرقى الذى يدين بالإسلام؟ نأمل ذلك.

(١) أى أنها تُفضِّل الموت على ارتكاب ما يشينها من الدنايا والنقائص.

مكانة المرأة في الإسلام

لقد أسفر نور الإسلام فافترَّ ثغرُ الدهر لنساء المجتمع الإنسانى عن جو مشرق، وأمل بعيد، وأسلوب من الحياة جديد... وإذا كان للمرأة العربية فى عهد جاهليتها بعض الفضائل المكتسبة ومواهبها الموروثة، وحقوقها التى حصلت على بعضها، وسُلب منها ـ بسوء الجهل ـ بعضها، فإنه لما جاء الإسلام وأشرقت أنواره ورسخت أصوله، ووَرَفَتْ ظلاله، ورفرفت على الخافقين أعلامه، شرع لها من الحقوق ما لم يكن من قبل، ولم تحصل المرأة فى أى عصر على أحسن من هذا التشريع، ذلك حُكْم للحقيقة وللتاريخ، لا لعاطفة، ولا لعِلَّة، ذلك لأن الإسلام فرق حُجُب الفوارق بين النساء كما فرَّقها بين الرجال، فتطامنت الرءوس، وتساوت النفوس، فليس بين المرأة والرجل إلا الخير، تقدمه بطيب نفس، أو العمل الصالح تسبق إليه، لكن لا تُدِلّ[1] بمكانة أب، أو منزلة عَمّ، أو جاه خال، أو تعتز بحسب، فذلك ما لا يُقدمها أُنملة، ولا يُغْنى عنها فتيلًا.

لقد شرع الله للمؤمنين شِرْعة الإخاء، حيث يقول جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[2]. فلم يفرِّق بين المسلمة والمسلمة، أو بين المسلم والمسلم، إلا شريف الخُلُق، وحَسَنُ الأدب، وموفور العقل، والعلم والحلم، لهذا يقول ربنا جَلَّ وعلا: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾[3]. والرسول ﷺ غَيَّرَ مَسْلَكَ العرب نحو بناتهم، لأن الرجل العربى كان يأنف من أن يُداعِب ابنته، مثل قيس بن عاصم المنقرى، الذى حَدَّثَ بين يدى النبى ﷺ عن

(١) أدَلّ على الشيء: وثق بمحبته فأفرط عليه، واجترأ.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(٣) سورة النور، الآية ٢٦.

ضحاياه من بناته، فقد وَأَدَ منهن اثنتى عشرة واحدة، فَرَدَّ عليه النبى ﷺ بقوله: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»، وأمره أن يعتق بكل واحدة جارية[1].

وإذا كان العربى يَئِدُ بناته فإن النبى ﷺ كان يُداعب البنات لينقض تلك السُّنة السيئة، فلم يكن يضنّ بوقته الأعز على فتاة يداعبها ويُلاعبها. حَدَّثَ البخارى عن أبى قتادة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وأُمامَة بنت أبى العاص على عاتِقِهِ، فصلى، فإذا ركعَ وَضَعَها، وإذا رَفَعَ رَفَعَها». كما حَدَّثَتْ أُمُّ خالد بنت خالد بن سعيد قالت: «أتيتُ رسولَ الله ﷺ مع أبى وعَلَىَّ قميص أصفر، قال رسول الله ﷺ: «سنه سنه» ـ وهى لغة حبشية ـ يعنى «حَسَنَة حَسَنَة»، قالت: فذهبت ألعبُ بخاتَم النبوة، فانتهرنى أبى، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْها...».

ولعل المرء يعجب وهو يسمع ويرى هذا الاهتمام من النبى العربى الذى يرشد إلى البر بالبنات، والعناية بهن، وأمره ببذل الرحمة وإسداء المعونة لهن. تذكر السيدة عائشة رضى الله عنها، أن امرأة جاءَتْها ومعها ابنتان، قالت: فسألتنى، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فَقَسَمَتْها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجتْ، فدخل رسولُ الله ﷺ، فحَدَّثْتُهُ بأمرها، فقال: «مَنِ ابْتُلِىَ مِنْ هَذِهِ البناتِ بِشَىْءٍ كُنَّ له ستراً من النار»[2].

ولقد أظهر النبى ﷺ حُبَّه الشديد لابنته فاطمة، رضى الله عنها، وحنانه عليها، حتى قال: «فاطمة بِضْعَةٌ مِنِّى، يَسُوؤنى ما يسوؤها، ويَسُرُّنى ما يسرُّها». ولقد أبصر المسلمون ذلك. ثم إن الله سبحانه اختص فاطمة الزهراء بذرية طيبة كانوا رياحين للنبى الكريم، وأصبحوا هم الأساس لآل البيت الطاهر، وذلك لكى يشيد بالمرأة وينهض بأمرها ويرفع من شأنها، لذلك غدا العرب بعد كل ذلك وهم يحبون بناتهم ويكرمونهن، ويرون أن الخير معقود بنواصيهن، وهذا ما قاله وَهْبُ بن مُنَبِّه من تقديم الأُنثى على الذكر فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ ﴾[3]، فقال: مِنْ يُمْنِ المرأة أن تلد الأُنثى قبل

---

(١) تفسير الطبرى، ج ٣٠.

(٢) «إرشاد السارى»، ج ٣.

(٣) سورة الشورى.

الذكر. وكان لِمَعْنِ بن أوس ثمانى بنات، ويقول: ما أُحِبُّ أن يكون لى بهن رجال، وفيهن قال:

رأيتُ رجالاً يكرهون بناتهم ... وفيهن لا تَكْذِب نساءٌ صَوالحُ
وفيهن والأيام يَعْثُرْنَ بالفَتَى ... عوائدُ لا يَمْلَلْنَهُ وَنَوائِحُ

وقال الزهرى: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يَرَوْنَ أنه على رَبِّ البنات إذا كُنَّ ثلاثاً فلا جهاد عليه، ولا صَدَقة، بل عليه أن يُشغل بهن، ويعتنى بتربيتهن، ويقضى حوائجهن»[1]. ولقد وجَّه النبى ﷺ الوصية بالعاملة (الخادمة) وأَمَرَ برعايتها، فلا يجوز أن يأكل أهل البيت الطعام ويُبْقُوا لها الفضلات، أو أن يناموا على الأَسِرَّة وفى الحُجَر وهى تنام على الأرض فى المطبخ، فإن ذلك شىء بغيض كريه، لا يفعله إلا المحروم من الرحمة والشفقة.

وعِشْ مع النبى ﷺ عندما حَدَثَ فى عهده «أن جارية (عاملة) كانت ترعى غنماً لعبد اللّه بن رَواحة، وكان من بين الغنم شاة أَمَرَها أن تتعهَّدها حتى تَسْمَنَ، واشتغلت يوماً بالرعى، فجاء الذئب فاختلس الشاة وقتلها، فجاء عبد اللّه وقد فُقِدَتِ الشاة، فلما أخبرته لَطَمَها، ثم نَدِمَ عل ذلك، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فعَظُمَ عليه ذلك، وقال: «ضَرَبْتَ وَجْهَ مؤمنة؟!»، فقال عبد اللّه: إنها سوداء لا علم لها. فأرسل إليها النبى ﷺ فسألها: «أين الله؟»، فقالت: فى السماء. قال: «فَمَنْ أنا؟»، قالت: رسولُ الله. قال ﷺ: «إنها مؤمنة، فأَعْتِقْها»[2].

ولقد ورث النبى ﷺ - فيما ورث عن أبيه - جارية عسراء اللسان، لا تكاد تبين (هى أمُّ أيمن)، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان يدعوها بأُمِّه، وكان إذا نَظَرَ إليها يقول: «هذه بقيةُ أهل بيتي»[3]. وهو القائل عليه الصلاة والسلام: «إنَّ خَدَمَكُم إخوانُكُم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يأكل، وليلبسه مِمَّا يلبس، ولا تُكَلِّفُوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم»[4].

---

(١) محاضرات الأدباء، ج ١.
(٢) مسند الإمام أبي حنيفة، ج ٣.
(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد.
(٤) «إرشاد السارى»، ج ٤.

ضُروبٌ مِنَ الوهم:

كان العرب في الجاهلية تتَّقِد قلوبهم غَيْرَةً على نسائهم، بل إن بعضهم إذا قذف زوجته لهاجسٍ اعتاده، أو خَلْجَةٍ من الشك نفذت إلى قلبه من أثَرِ كلمة سمعها، كانوا يحتكمون إلى الكُهَّان والعرَّافين، وقارئي الفنجان، وضاربات الودع، ومبيتة الأَثَر، وهؤلاء بَشَرٌ يَقْذِفُون بالغيب، ويرجُمون بالظن، ويخطئون، واسمع إلى قول القائل:

جعلتُ لعرَّافِ اليمامة حِكْمَة ... وعرَّاف نَجْدٍ إنْ هما شفياني[1]
فقالا: نعم، تُشْفَى من الداء كله ... وظَـلَّا مـع العُـوَّاد يتـدراني
فما تَـرَكـا مِنْ رُقْيَةٍ يعرفـانها ... ولا سَلْـوَةٍ إلا وقـد سَقَيـاني

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما تدري الطَّوارِقُ بالحَصَى ... ولا زاجِراتُ الطَّيْرِ ما الله صانعُ[2]

ويقول آخر فيمَنْ يدَّعي المعرفة بالغيب:

يَظُنَّـان ظَنًّـا مـرَّة يُخْطِئـانِـه ... وأُخرى على بعض الذي يصفان
قضى الله أَلاَّ يعلم الغيب غَيْرَهُ ... ففـي أيِّ أمـر الله يَمْتـرِيـانِ؟

وإن من أشد ضروب الوهم، وأفدح أثقال الظلم أنْ تَرَى العربي يريد السفر فيذهب إلى شجرة فيعقد بين غصنين منها ـ أي يعقدهما غُصْناً على غُصْنٍ ـ فإن عادَ وكان الغصنان على حالهما فإنه يطمئن إلى أن زوجته لم تَخُنْه، وإن انفك الغصنان فزوجتُهُ خانته، وكانوا يسمون ذلك الرَّتِيمة أو الرَّتَمَة[3]. فكأن عِرْضَ المرأة ـ بل

---

(١) ويقول عروة بن حزام:

فقلتُ لعَـرَّافِ اليمـامـة: داوِنـي ... فـإنـك إنْ أبـرأتَنـي لَطَبِيـبُ

والعرَّاف: الكاهن.. وفي الحديث: «مَنْ أتى عَرَّافاً أو كاهناً فقد كفَرَ بما أُنزل على محمد ﷺ». والمراد بالعرَّاف هنا: المُنَجِّم أو الحازي الذي يدَّعي عِلْمَ الغيب الذي استأثر الله بعلمه [انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة: عرف].

(٢) الطوارق: جمع طارقة، وهي الضاربة بالحصى للتكهن. وكانوا يزجرون الطير، أي: يثيرونها ليتيمَّنُوا بسنوحها، أو يتشاءموا ببروحها.

(٣) انظر: «لسان العرب» ـ مادة: رتم.

عِرْض الأسرة كلها، بل عِرْض الحى الذى نشأت فيه المرأة وبين ربوعه ودرجت بين مدارجه ـ مُرْتَهَنٌ بغصنين يلعب بهما الهواء أو تعصف بهما الريح، أو تعبث بهما الأيدي. ولقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك، وقضى الإسلام على هذاالعمل، وسَدَّ المنافذَ على الغيرة العمياء، إلاَّ أن يكون الإنسان على علمٍ تامٍّ وبيِّنَة، أمَّا الشك والشبهات فهذا ليس من الدين فى شيء.

وجاء القرآن يُحَدِّد المفاهيم ويعلن: أنَّ مَنْ رَمَى زوجته فى عرضها فعليه ـ إنْ لم يكن معه شهود يتسمون بالصدق ويُعْرَف عنهم حُسْن الخلق ـ فعلى هذا الرجل أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لَمِنَ الصادقين فيما قال وادَّعى، والخامسة أنَّ لعنة الله عليه إنْ كان من الكاذبين، فإن لم يلتزم بذلك فَيُعاقَب بجَلْدِهِ ثمانين جلدة، ولا تُقْبَل له شهادة بعد ذلك، لأنه صار من الفاسقين، وذلك إذا رَمَى زوجته بالفاحشة واتَّهمها بالزنى ولم يُقِمْ الدليلَ، فكان الحَلْفُ تبريراً لما ادَّعاه.

ومن باب سَدِّ المنافذ للغيرة العمياء، ما حَدَّث به البخارى عن سعد بن عُبادة قال: «لو رأيْتُ رجلًا مع امرأتى لضربتُه بالسيف غير مصفح» ـ أى غير مائل عرضاً ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«أتعجبون مِنْ غَيْرة سعد؟ والله لأَنَا أَغْيَرُ منه، والله أَغْيَرُ مِنِّي، ومن أجل غيرة الله حَرَّم الفواحش ما ظَهَر منها وما بطن»**[1].
ثم ما حدَّث به أبو هريرة رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ جاءه أعرابى فقال: يا رسول الله، إن امرأتى ولدت غلاماً أسود. فقال رسول الله ﷺ: **«هل لك مِنْ إبل؟»**، قال: نعم. قال: **«ما ألوانها؟»**، قال: حُمْرٌ. قال: **«أفيها أَوْرَقُ**[2]**؟»**، قال: نعم، قال: **«فأنى كان ذلك؟»**، قال: أراه عرق نَزَعة، قال: **«فلعل ابنك هذا نزعة عِرْق»**[3].

فانظر كيف عالجَ الرسول ﷺ شَكَّ الرجل فى زوجته بالرفق والعلم، وكيف عالج غيرة النفس وحديثها؟ وكيف اتقاها ووقَى الناس من شرها؟ إنَّ فى دَفْع

(١) «إرشاد السارى»، ج ٨.
(٢) الأورق من كل شيء: ما كان لونُه لونَ الرماد.
(٣) «فتح البارى»، ج ١٠.

النبي ﷺ شرَّ التهمة عن امرأة الأعرابي دليلًا لا يقبل الشك على براءتها وطهارة عرضها. إن الرجل لو كان في جاهليته لأثارَ زوبعة حول زوجته واتهمها وهي البريئة، وفتك بها وروى غليلَ نفسه بنقيع دمها، أو أن يذهب إلى كاهنٍ، أو فاتح الفنجان، وقارئ الكف ليقولوا بالكلمة الحمقاء ما يقولون، فيكون لها ما بعدها، وليس وراء هذا أو ذاك إلا عار الدهر، وذُلّ الأبد، لكن الإسلام وضع التشريع الذي يحفظ للمجتمع كيانه، وللأسرة استقرارها، وللمرأة شرفها، وللعائلة كرامتها، وسدّ باب الشك والظن السيِّئ، لذلك قال معاوية بن أبي سفيان: «ثلاث من السُّؤدد: الصلع، واندحاق البطن، وترك الإفراط في الغيرة»[1].

ويقول الشاعر:

إذا قَصُرَتْ أيدي الرجالِ عن العُلَا ... مددتُ لها باعاً عَلِيًا فَنِلْتُها

ومَكْرَمَة كانت رعاية والدي ... فَعَلَّمَنِيها والدي فنقلتها

وإني سألقَى الله لَمْ أَرْمِ حُرَّة ... ولم تأتمِنِّي يوم سِرٍّ فخُنتها

ولا قاذفٌ نفسٍ ونَفْسِي بريئة ... وكيف اعتذاري بعد ما قذفتها

إن أشد ما يؤلم نفسَ الرجل الكريم أن يسمع أحداً يُعَيِّرُه بأمه، فإن ذلك يهز شخصيته، ويضعف مركزه الاجتماعي، فلقد حدث أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه عَيَّرَ بلالاً بأُمّه السوداء، وسمع ذلك النبي ﷺ، فقال لأبي ذرٍّ: «إنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهلية! أعيَّرْتَه بأُمّه؟!»، فما كان من أبي ذرٍّ إلا أن وَضَعَ خَدَّهُ على الأرض وقال لبلال: طَأْ بقدمِك على خَدِّ ابنِ البيضاء. ذلك لأن رسول الله ﷺ استنَّ للمسلمين سُنَّة المساواة بقول: «إن المسلم أخو المسلم، فلا يَحِلّ لمسلمٍ من أخيه إلاَّ ما أَحَلَّ من نفسه». ويقول: «كل نسب وسبب يوم القيامة مقطوعٌ إلا نَسَبِي وسببي». ومع كل ذلك فلا مجاملة في حدود الله، فمَنْ تعدَّى الحدود يُحاسَب مهما كان مركزه الاجتماعي ووضعه الأدبي في المجتمع، من ذلك حديث «فاطمة بنت الأسود المخزومية»، وهي امرأة من ذوات الشرف والحَسَب في قريش، ضَعُفَتْ نفسُها ووهنت، فسرقت، وقامت عليها البيّنة فوجَبَ عليها الحدُّ، وهو قطع يدها، لقول

(١) السؤدد: المجد والشرف، واندحاق البطن: اتِّساعه.

الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾[1]، ولقد أَهَمَّ قريش هذا، وبعثوا بمَنْ يُكَلِّم النبى ﷺ ولم يجدوا مَنْ يجترئ على النبى ﷺ إلاَّ أُسامة بن زيد، وهو حِبُّ رسول الله ﷺ، وله منزلة كريمة، لكنه عندما تكلَّم وشَفَعَ لفاطمة حتى لا تُقْطَعَ يدُها، غضب النبى ﷺ وقال: «أتَشْفَعُ فى حَدٍّ من حدود الله؟»، ثم قام فخَطَبَ فى الناس فقال: «إنما ضَلَّ مَنْ قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحَدّ، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سَرَقَتْ لقطعَ مُحَمَّدٌ يَدَها»!

هل رأت الدنيا مثل تلكم الشخصية الفذة العظيمة؟ لا تجامل فى الحق، ولا تميل مع الهوى، وإنما العدل والمساواة وإحقاق الحق، عملًا بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾[2].

وهكذا نجد أن رسول الإنسانية برغم عَطْفِه وحُبِّه وحنانه على المرأة فإنه لا يقرّ الانحراف فى السلوك، أو الخروج على مقتضى الآداب العامة أو العرف الاجتماعى، هذا مع أن رسول الإسلام نَبَّهَ، وأرشد، وَوَجَّهَ، لكن الثواب والعقاب لا بد أن يُطَبَّقا حتى لا يكون هناك تفلُّت أو انحراف، ويكون هناك ارتقاء بالتعاليم الدينية وبالقيم الأخلاقية والتقاليد البيئية، ليرقى المجتمع ويتقدم فى العطاء والإنتاج.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣٨.

(٢) سورة المائدة.

عمل المرأة

حَمَلَ إليَّ البريد يوماً رسالة موقَّعة من سيدة متزوجة وآثرت أن ترمز لاسمها (س. أ. م) تقول فيها:

سيدى، أنا متزوجة من شاب بعد قصة حب، وأنا موظفة بوزارة.... ودَخْلى والحمد لله يكفى أسرة صغيرة، وقد رضيتُ من أول الأمر أن أُسْهِمَ براتبى فى بيت الزوجية. ومضت الحياة، ولم أدَّخِرْ أىَّ مبلغ من راتبى، بل كان زوجى هو الذى يَدَّخر راتبه ويحتفظ به فى حساب بأحد البنوك باسمه شخصيًّا، ولم يقبل أن يُشركنى معه فى التوقيع.. ومضت الأيام، وأنجبتُ ثلاثة أولاد، وسافر زوجى إلى الخارج، وكان يُرسل إليَّ أول كل شهر برسالة ومبلغ من المال، ثم بدأت رسائله تقلُّ بعد أربعة أشهر إلى أن صارت رسالة واحدة كُل ثلاثة أشهر، مع تخفيض المبلغ بنسبة كبيرة، ولم ينزل فى الإجازة.. وفى أول العام الدراسى الجديد بدأت أقلق عليه، فاتصلتُ بأحد أقاربى الذى التقى به وتحدَّث إليه، فأخبره بأنه تزوج زميلته هناك، وأنني علىَّ أن أتصرَّف، وعند نزوله للبلد سوف يبعث إليَّ بورقة الطلاق! فقال له قريبى: والأولاد؟ قال: «هِيَّة حرة ويّاهم، آهى لها مرتب». وقد وَفَّى بكلامه. نَزَلَ إجازة وفَعَلَ ذلك، ولم يقبل لقائى أو التفاهم معى على مُؤَخَّر الصداق، ومصاريف الأولاد، فأسرعتُ إلى الشرطة وتقدمتُ بشكوى، وطلبتُ مَنْعَهُ من السفر، لكنه حضر ومعه محامٍ وتقدَّما بمذكرة فيها عنوانه فى البلدة التى يعمل بها وقالا: هى لا دَخْلَ لها به، وعليها اللجوء للقضاء، وعند الحُكْم بأمْرِ القضاء أُخْطَرُ وسوف ألتزم. وقد أفرجت عنه الشرطة. وقد لجأتُ للقضاء، ولا يخفى عليكَ أن الأولاد كبروا ومصاريفهم كثرت، وأصبحتُ لا أقدر على مواجهة الحياة، وأخشى على أولادى.. ومَضَى عام، ولم تُصْدِرِ المحكمةُ

حُكْمها، فمحاميه يطلب التأجيل للاطلاع، أو لتقديم المستندات، أو. . . وهكذا يا سيدى، لقد اسودّت الدنيا أمام عينى، ووهنتْ قُوّتى، وتخلَّى عَنِّى الكثيرون من معارفى. فهل يجوز لى يا سيدى أن أنتحر لأتخلَّص من مشاكلى، ويسامحنى ربى الذى لا يحب الظلم، لأن أهل زوجى وإخوته طلبت منهم المساعدة فقالوا لى: إنه كان متزوجك موظفة علشان تصرفى على أولادك. طيب مؤخر الصداق يا سادة؟ يقولون: إنك موظفة. وهكذا. . فهل هذا يرضى الله، وهل الوظيفة حرام؟ أم إن المرأة هى المسئولة عن تربية الأولاد؟ بالله عليكَ أرجو أن تفيدنى برأى الإسلام، لأننى لا أريد أن أغضب ربى، ولك السلام.

هذا هو ملخَّص خطاب السيدة (س.أ.م) من. . . . . دقهلية، ونلخص ما تطلب فيه الرأى:

١ ـ الانتحار.

٢ ـ هل المرأة هى التى تصرف على الأولاد؟

٣ ـ هل عمل المرأة حرام؟

وقد رَدَدْتُ عليها بالآتى:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد: فقد آلَمَتْنى رسالتك ياابنَتِى، لأننى أُدرك مدى ما تُعانيه فى هذا الجو الخانق. . رجل ليس فيه من أخلاق الرجال شىء، فإن الرجل هو الذى يتحمل المسئولية بكفاءة، ويتعامل مع المرأة بشهامة ومروءة، لأنه لا يكرم المرأة إلا كريم، ولا يهينها إلا لئيم، خسيس، والرجل هو الذى لا يطمع فى مالها، ولا يرمى بالحِمْل عليها. . الرجل الحقيقى هو الذى يأخذ أولاد الناس ليحافظ عليهم، لأنه أخذ المرأة بكلمة الله، وعاشَرَها تحت راية الإسلام، فكان الأجدر به أن يكون شريفَ المقصد، عفيفَ النفس، لا يطمع فى مال المرأة تحت أى ظرف. وأقول لك ـ أنت وأهلك: من الأول أخطأتم، وهذه هى النتيجة، لأن أهل الزوجة عليهم أن يبحثوا عن الرجل ذى الأصل الطيب، الذى يتَّسم بالخُلُق الكريم، ويتحلَّى بالأدب الرفيع، ويصلى لله، ويؤدى واجبه إزاء الآخرين، لأن مثل

هذا إن أَحَبَّ المرأة أكرمها، وإن أبغضها لم يُهنْها، ولم يتخلَّ عنها، إلا فى حدود ما يُرْضى الله ورسوله، ويردّ إليها حقوقها كاملة. أما وقد كان ما كان، فلعلَّ القضاء يُسعفك برأيه الذى يُحقِّق لكِ ولأولادك الخير.

واعلمى يا ابنتى أن الانتحار حرامٌ، لأن الإنسان بالانتحار يتعجَّل مصيره، وكأنه ساخطٌ على القَدَر، لكن بالصبر، والحلم، والاستعانة بالصلاة، وطلب المساعدة من الله، تُحَلُّ المشاكل بعون الله، فكونى قوية العزيمة ولا تضعفى، والله معكِ، ولا تفكرى أبداً فى الانتحار، لأنه جريمة يغضب الله على مَنْ يرتكبها، بل إن الرسول ﷺ، لم يُصَلِّ على المنتحر، لأنه مات والله به عليم، لكنه فى الظاهر كافر بالقضاء والقدر، وهو يُعَذَّب فى نار جهنم بما انتحر به. والمؤمن عنده ثقة فى ربه، لأن نفس الإنسان أمانة.. على الشخص أن يصونها بالرعاية والحِفْظ، لأنه سَيُسْأَل عنها أمام الله، وفى الحديث الشريف: «**الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار، والذى يطعنُ نفسه يطعنها فى النار**»[١].

والإنسان لا ييأس أبداً، لأن رحمة الله قريبة جدًّا، ينالها الإنسان بالطاعة لله، ولا يقنط أبداً من رحمة الله إلا الكافرُ الجاحد، أمَّا المؤمن فهو فى نعيم الطاعة، ولذَّة السعادة، وذلك برضاه عن القضاء والقَدَر، فإذا كان الله قد ابتلاكِ بزوج مُشَوَّهٌ فى رجولته فليكن لَكِ أُسوة حسنة بزوجة فرعون، فمع صبرها واحتسابها كانت تستغرق فى عبادة خاشعة لله وتناجيه بقولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[٢]. وتأمَّلى يا أُختاه فى كلامها، فهى تختار الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، وما دام القدر قد كتب لكِ هذا الاقتران بهذا الرجل الذى لم يَرْعَ الله فيكِ، فتجمَّلى بالصبر، ولعل القضاء يُسعفك، والله برحمته لن يتخلَّى عنك، ما دُمْتِ صابرة محتسبة، فالله سبحانه مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون. وقومى على رعاية أولادك، فلعلهم أن يكونوا أولادَ حلال، يرعون ذِمَّتَكِ، ويقومون على شأنك، ويعرفون ما فعله الأب الجاحد للجميل، والنَّاكر للعِشْرة، والذى تخلَّى عن

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة التحريم، الآية ١١.

مسئوليته ليجرى وراء نزوة شيطانية، واعلمى أن الله منتقمٌ من كل ظالم يأكل حقوق الناس، وسوف يأتى يوم القيامة وشِقُّهُ مائلٌ، وعليه أثر الظلم، لأنه أنكر حقك.

أما كون المرأة تصرف على الرجل، فهذا ما لم يَقُلْ به إنسان عاقل، علاوة على آراء الفقهاء، فالإجماع على أنَّ الرجل هو المسئول عن الإنفاق على زوجته، وعلى أولاده، وإلى هذا أشار القرآن الكريم، وهو تشريعُ الله للإنسانية، يقول عزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾(١)، ويقول فى حق النفقة على الأولاد: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾(٢). أمَّا عن حق السكن، وأنه واجب على الزوج، فقد قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾(٣). هذه هى الأسس: الرجل هو المسئول عن النفقة على الزوجة وعلى الأولاد، والزوجة لو أسهمت بأى شىء من راتبها أو دَخْلها فهو تطوعٌ منها، وليس جبراً إنْ كانت قد اتفقت معه من أول الأمر على أن يسمح لها بممارسة العمل، وليس له دَخْل فى راتبها لأن المؤمنين عند شروطهم، والشرط يجب الوفاء به إذا كان فى الطاعة، وإلا فلا... فإنْ رفض عملها من أول الأمر فهذا شأنه، وعليها أن تلتزم به لأنه مطلوب منه النفقة عليها، ووقت الزوجة كله له، أما إذا لم يشترطا وهى تعمل أثناء الخطبة وبعدها فهو يعرض عليها ويخيِّرها بين:

١ ـ ترك العمل والتفرُّغ لرعاية الأسرة والقيام بمصالح البيت.

٢ ـ أو تعمل وهو يأخذ كل دخلها، ويترك لها ما يفى بحاجاتها ومستلزماتها، وذلك لأن وقت المرأة كله لزوجها، فلا يجوز لها أن تضيِّع الوقت

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.
(٣) سورة الطلاق، الآية ٦.

فى غير عائد، لأنها إن جلست فى البيت ستهيؤه، وتعدّه إعداداً كاملًا، ليكون مقرّ راحة لزوجها، ينشرح به صدره، وتقرّ فيه عينه من النظام الذى يسود المنزل، والجمال الذى يتّسم به، ثم هى لا تكون مُرْهَقَة مُتْعَبة، تشكو الصداع من العمل، والإرهاق من المواصلات، فالمرأة إذاً لها الخيار، وهى تُكيِّف وضعها: إما العمل، وإما تركه.

أما كون عمل المرأة حرام، فهذا ما لم يقل به أحد من الذين درسوا النظام الاجتماعى الإسلامى، فللمرأة أن تعمل، وأشرف ميدان تعمل به المرأة هو أن تكون ربة أسرة، حيث تبرز خصائصها الطبيعية، لأن الزوجية بين الجنسين زوجية روحية، ثمارها السكن النفسى، والمودّة بين الزوجين، والرحمة بالمرأة، فلا ترهقها بالعمل الشاق، حتى لا تعطل عملها الأصلى فى المنزل.

إن المرأة يصيبها الطمث، وهو يأتى مرة فى الشهر، وهذا يتعبها بدنيًّا، ويعرِّضها إلى هزّات نفسية، فتكون فى حاجة إلى الراحة تخلد إليها، لتستجمع قوتها، وهذا شىء لا دخل لها هى فيه، وإنما هذا شىء كتبه الله على بنات حواء، ثم هناك الأمومة، والمرأة تتهيأ لهذه المهنة بأن تكون فى أعلى درجات الحالات النفسية استقراراً وهدوءاً، حتى إذا حملت أَضْفَتْ على الجنين وهو بين أحشائها من سعادتها، وهدوء أعصابها، ما يهيِّئ المناخ النفسى للجنين، وهو يتكون من دمها ويتغذى من جسدها حتى ينمو، فكلما كانت نفسية المرأة هادئة انعكس ذلك عليه، ثم تأتى فترة الرضاعة، ومن المعلوم أن الطفل يرضع مع اللبن من صدر أمه العادات، والأخلاق، والحلم أو الطيش، والهدوء أو الانزعاج، وهكذا يتأثر الولد بأخلاق أمه، لهذا كانت الأمومة أعظم عمل تُقدِّمه المرأة، حتى تستطيع أن تقدم الدفء والحنان والاستقرار للأسرة.

ولقد اتجهت المرأة من قديم الزمان إلى أعمال تلامس وظيفة المرأة المنزلية، مثل: الطبخ، والخياطة، والغَزْل، والتطريز، وقد استقرَّ ذلك فى وجدانها، من حيث إحساس المرأة نحو رعاية الزوج والطفل، وهذه الأعمال متأصِّلة فى مشاعرها وكيانها وتفعلها باختيارها، فهى تحرص على وليدها، فتعدُّ له

اللفائف، التي تقيه عوارض الجو، وبمحض إرادتها تقوم بعمل البيت، رعاية لزوجها، وثمرة لعاطفة الحب في قلبها، وتأثُّرها بما يُبديه لها من عطف ورعاية.

من هنا: نجد أن بعض الدول تهتم بالفتاة التي ستصير غداً زوجة، فتقوم هذه الدول بتثقيف الفتاة في مهمتها المستقبلية، وما يتصل بهذه الرسالة، على حسب ما تبلغه ثقافة العصر والبيئة الاجتماعية، من تهيئة البيت، ورعاية الزوج، واحتضان الأسرة بعاطفة الحب والحنان، ليكون المناخ السعيد مُهَيَّأً لاستقبال الأولاد.

إن إرادة الله تعالى عندما هيَّأت المرأة لتقوم بهذه المهمة السامية لم يكن ذلك عبثاً، بل إن ذلك تمّ بتقدير مَنْ يملك الأمر، وهو الله الحكيم الخبير، وتم ذلك لحكمة عظيمة، فالمرأة أقدر على سياسة المنزل ورعايته، فهي بطبيعتها تحتضن المنزل بجناحيها، حتى تحقق وظائف أنوثتها، وتبرز خصائصها، وثمارها إضفاء الدفء على الأسرة، والتركيز النفسي والذهني نحو تماسك العائلة، حيث مكانتها بين هؤلاء بمنزلة القلب الذي يدفع بالدم ليجدد النشاط ويقوِّي العزائم، فالبيت إذاً هو المكان الطبيعي لتحقيق المقاصد العليا لتخريج جيل يحمل أمانة المسئولية، وهي لا تخرج من بيتها، لقول الله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾[1] أي: لا تدفعوا بهن في أعمال أخرى، والآية وإنْ كانت نزلتْ في المُعْتَدَّة، لكن حُكمها يسري كذلك على الزوج الذي يريد أن يدفع بزوجته خارج المنزل. قال القرطبي: «أي ليس للزوج أن يُخرجها من مسكن الزوجية، ولا يجوز لها الخروج إلا لضرورة ظاهرة»[2].

إن قانونَيْ الزوجية والأمومة قانونان روحيان، لهما القدرة على تحقيق أقدس قيم الحياة، فالثدي الذي يلقمه الطفل، والرحم الذي يتكون الجنين في قراره المكين، يعملان لتصميم الحياة، ولكنهما في ميدان التكسب سلبيان، والسلبية عجز، لهذا فإن منطق الواقع يقرر عجز المرأة عن العمل في الخارج دائماً، لما يصيب المرأة من حالات لا دَخْلَ لها في هذه الأمور، وهي تصيبها بالتعب

(١) سورة الطلاق، الآية ١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن.

والإرهاق، والهزات النفسية، والاضطرابات الجسدية، ومراعاة لذلك خَفَّفَ الله فى هذه الحالة عنها، وألزمها بالإفطار في شهر رمضان، ووضع عنها الصلاة وأسقطها رعاية لظروفها الصحية وحالتها النفسية والجسدية. وأهم هذه الحالات التي تعترى المرأة هى:

١ ـ الدورة الشهرية (الحيض) وأقلّه يوم وليلة، وغالبه ستة أيام أو سبع، وأكثره خمسة عشر يوماً.

٢ ـ الحمل، ومدته تسعة أشهر فى الغالب.

٣ ـ الولادة وما يصاحبها من تعب.

٤ ـ النفاس وقد يمتد إلى أربعين يوماً.

ولكى نتعرف على آثار ذلك نرجع إلى الطب نستلهمه الرأى، فالطب يقرر أن آثاراً نفسية وعقلية وبدنية تحدث على الكيان العام للمرأة، عندما تطرأ عليها هذه الأشياء، وأبرزها، كما يقول أبو الأعلى المودودى:

١ ـ تقلّ فى جسمها قوة إمساك الحرارة فتنخفض حرارتها.

٢ ـ يبطؤ النبض، وينقص ضغط الدم، ويقلّ عدد خلاياه.

٣ ـ تُصاب الغدد الصماء واللوزتان والغدد اللمفاوية بالتغيُّر.

٤ ـ يختل الهضم، وتضعف قوة التنفس.

٥ ـ يتبلّد الحس، فتتكاسل الأعضاء وتتخلف الفطنة، وتقلّ قوة التركيز.

وكل هذه التغييرات تُدنى المرأة الصحيحة من حالة المرض. وقد كتب الدكتور «أميل نووك» وهو محقق بارع فى هذا الصدد: «إن ما يُمَهِّد فى الحُيَّض عامة من الأعراض هو: الصداع والتعب، ووجع العظام، وضعف الأعصاب، وتخلُّف المزاج، واضطراب المثانة، وسوء الهضم، والغثيان فى بعض الحالات».

ويقول فى الحمل:

وأشد على المرأة من مدة الحيض «زمان الحمل»، يقول الدكتور «ريبريف»: «لا تستطيع قوة المرأة أن تتحمل من مشقة الجهد البدنى والعقلى ما تتحمله فى عامة الأحوال، وإن عوارض الحامل إنْ عَرَضَتْ لرجل أو امرأة غير حامل لَحُكِمَ

عليه أو عليها بالمرض دون شك، ففى هذه المدة يبقى مجموعها العصبى مختلًا لأشهرٍ متعددة، ويضطرب فيها الاتزان الذهنى، وتكون جميع عناصرها الروحية فى حالة فوضى دائمة».

ثم يقول عن حالة المرأة بعد النفاس: «وأما عَقِب وضع الحمل فتكون المرأة عرضة لأمراض متعددة، إذ تكون جراح نفاسها مستعدة أبداً للتسمم، وتصبح أعضاؤها الجنسية فى حركة لاإرادية، لتقلصها إلى حالتها الطبيعية قبل الحمل، مما يختل به نظام جسمها كله، ويستغرق بضعة أسابيع فى عودته إلى نِصابِه، وبذلك تبقى المرأة مريضة أو شبه مريضة، مدة سنة كاملة بعد قرار الحمل، وتعود قوة عملها نصف ما تكون فى عامة الأحوال أو أقل منه»(١).

إن ميدان الأسرة يتطلب من المرأة العلم الوافر، والمعرفة الصادقة، إذ فيه يتم بناء النفوس وإعدادها إعداداً تتشعب معه فنون المعرفة، وتتوافر عليه مناهج العلم، لهذا فإن على المرأة أن تعلم أن رسالتها فى الحياة ليست بأقل من رسالة الرجل، إن لم تكن أهم، من حيث كونها الأصل فى إعداد النشء، وعليها أن تُدرك أن فطرتها الأصلية لا تدفعها إلى أن تخرج على وظيفتها الأصلية، ورسالتها فى ميدان الأسرة، لأن ذلك صيانة لها، ولا يرضى لها أن تعود أدراجها إلى هوّة العمل فى ميدان فسيح، تكون فيه نهباً لكل طامع، تغتصبها النظرات، ويعبث بها التطلع المنحرف. إن الإسلام يأبى أن يراها بعيدة عن ميدان الأمومة، حيث تُحاط فيه بطهر الأخلاق.

قد تترك المرأة دفء الأسرة، وتخرج للعمل، وفى إمكانها التوفيق بين واجبها فى البيت وعملها فى الخارج، فنقول: بأن الإسلام لا يُمانع فى ذلك ما دامت هى راضية وسوف تؤدى عملها هنا وهناك، والزوج يوافق على ذلك أيضاً، ونقول لها: اخرجى إلى العمل بحشمة ووقار وملابس فضفاضة ولا تصبغى وجهك أو تضعى أى عطر، ولا تذهبى إلى مزين النساء فلا تصلى شعرك بشعر غيرك

(١) يراجع في ذلك كتاب «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي.

«الباروكة» ولا تزيلى شيئاً من حواجبك أو تضيفى إليها شيئاً، ولا تُرقِّقى أسنانك أو توسعى ما بينها طلباً للجمال، ولا تصبغى وجهك بأى شيء، ولا تفعلى فى شعرك شيئاً إلا أن تدهنيه وتكرميه وتغسليه فلا تميليه يميناً أو يساراً، أو تلفّيه بصورة تجعله أشبه بشيء كبير فوق رأسك حتى لا يكون شعرك كأسنمة البُخْت (الجمال). ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صنفان من أهل النار لم أرَهُما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يَجِدْنَ ريحها، وإنَّ ريحها لَيُوجَد من مسيرة كذا وكذا»[1].

ومعنى قوله: «كاسيات عاريات»، أى: يلبسن الملابس الغالية لكنها تكشف عن بعض أجسامهن، ويلبسن أثواباً رقيقة تصف لون أجسامهن، وقد تكون ملابس قصيرة أو ضيقة تحدد أماكن جسم السيدة كالبنطلون، وما شاكَلَ ذلك. ومعنى «مائلات»، أى: يمشين مُتبخترات مع الحذاء ذى الكعب العالى، فترى أجسامهن تهتز وتميل، وهن مُمِيلات لأكتافهن، «رؤوسهن كأسنمة البُخْت»، أى: تلفُّ المرأةُ شعرَها كَلَفِّ العمامة عند تصفيف الشعر. وهذا الحديث من معجزات النبوة، فلقد ظهر ذلك كله الآن.

إن عمل المرأة مباح ما لم يكن العمل فيه إثم كما هو الحال فى التمثيل والإعلانات وعرض الأزياء، ونحو ذلك، حيث تزعم المرأة أن هذا ميدان الفن، ونقول لها:

١ ـ إن العمل فى هذا الميدان يتطلب مِنْكِ ارتداء الملابس القصرة ووضع الأصباغ على وجهك، وعمل شعرك كأسنمة البُخت.

٢ ـ فى هذا الميدان تُرى المرأة فى اليوم الواحد ـ فى أكثر من تمثيلية ـ زوجة لـ «س» من الناس، فى حين أنها زوجة فى الواقع لـ «ص» من الناس، وقد يُقَبِّلُها، وتنام معه فى السرير، ويقولون: هذا تمثيل، كلّا، بل هو خروج على مقتضى

(١) رواه مسلم.

الشرع، ولا يجوز ذلك بحالٍ من الأحوال، لأن هذا اللون من العمل حرام، وفيه إهدار لكرامة المرأة.

٣ ـ ترقص المرأة، وتهزّ جسمها، ويراها هذا وذاك، وهذا يتنافى مع أبسط قواعد الأدب العام، والاحترام لطبيعة المرأة، التى تحمل رسالة عظيمة هى تنشئة جيل عظيم، فكيف يكون الحال ـ وهذا حالها ـ وكيف نبنى الأمة على الأخلاق والآداب؟

٤ ـ إن كشف صدر المرأة وظهور ثدييها بصورة تلفت النظر وتثير الغرائز وتحرك الشهوات حرام، وكشف أى جزء من المرأة حرام ـ ما عدا الوجه والكفين.

إن الإسلام أباح للمرأة أن تعمل، لكن فى حدود الآداب العامة والأخلاق الفاضلة، فلا يليق أن تعمل سكرتيرة خاصة يُغْلَق عليها ورئيسها الباب، وتُضاء اللمبة الحمراء، لأن اجتماعاً يُعقد في الداخل، والحجة أن البريد حمل أوراقاً هامَّة يريد أن يتفرغ لها، وهكذا. إن عمل المرأة مباح ما دام فى غير معصية، بحيث تكسب قوتها وقوت مَنْ تعول ـ عند الاضطرار ـ من عملٍ محترم ليس فيه خدش للحياء، أو امتهان لكرامة المرأة، وتلويث سمعتها، إنها قد تكون بلا عائل، أو تساعد من يعولها، وقد يكون معها أطفال فى حاجة إلى رعاية، أو إخوة صغار، حيث مات الأب أو مرض، فيكون العمل عصمة لها ولأولادها، ومن باب الكرامة، وتحقيق الصيانة لها، نقول: اعملى، لأن مجد الأمة فى كثرة الأيدى العاملة، وأنت نصف المجتمع، كما أنه من حقك أن تتعلمى وتتثقفى، وليس هناك من يحجر عليك فى هذا المجال، لأن طلب العِلْم فريضة على كل مسلم ومسلمة. والعمل ينمّى شخصية المرأة، حيث تعمل فى مصنع، أو بنك، أو مؤسسة، كما أن من حقها أن تعمل فى الحقل السياسى، ومراقبة أداء الدولة، وتقويم الاتجاه العام، ولها المشاركة فى الأندية، وحضور الجماعات، والمنظمات النيابية، وغير ذلك مما يكون العمل فيه علناً، وفيه الحفاظ على أنوثتها، ورعاية رقة جسمها، وشأنها فى الحمل والإرضاع وغير ذلك من الأمور الخاصة بها.

لقد قص علينا القرآن قصة بنات الرجل الذى أقعدته الشيخوخة عن العمل

فقامت ابنتاه برعى الغنم ومقابلتهما لموسى عليه السلام الذى سَقَى لهما، لأنهما لم تستطيعا السَّقْى حتى يُصْدِر الرِّعاء، وقدَّمتا العِلَّة فى رعيهما للغنم، بأن أباهما شيخ كبير. وكذلك قص علينا القرآن قصة ملكة سبأ وما تميزت به من فكر ثاقب لأنها استعملت فكرها، واتخذت الشورى مبدأ لها مع رجال دولتها، ولحصافة رأيها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين. فالإسلام يبيح للمرأة أن تعمل فى أى مجال مع الحفاظ على خصائص إنسانيتها، وما يتعارف عليه المجتمع من قيم نبيلة، ومُثُل كريمة، تستمد أصولها من هدى الله وتعاليم الأنبياء، مع الحفاظ على المظهر العام، وعدم الخلوة مع أى رجل، ويسر المواصلات بحيث لا تعرض نفسها لرذائل ضعاف النفوس وأتباع الشيطان ولا يخفى على أحد ما يحدث من زمام المواصلات والتصاق أجساد الرجال بالنساء.

ومع ذلك فإن المنصفين من المفكِّرين المعاصرين ينظرون إلى المرأة باعتبارها الأساس للمنزل والأسرة ومن أهم عوامل استقرارهما.

إن نواميس الكائنات تقيم لكل كائن نظام وجوده، وتمنحه من الوظائف ما فيه مصلحته الخاصة، وإن من تحصيل الحاصل أن نقول: إن المرأة صالحة للحمل والولادة والإرضاع والحضانة، ولتحقيق ثمرة الزوجية التى يترتب عليها قيامها بأعمال البيت، بحيث هيَّأها الله لذلك، بما وهبها من ذكاء العاطفة ورهافة الحسّ، وحنان زائد، لتستطيع تحقيق ظروف العمل لقانون الزوجية والأمومة، وتأهيل نفسها لاحتمال المشقة، والتضحية، حتى يكون من عبقريتها ألاَّ تفرِّق بين الألم واللذة فيما تعانى من رعاية الولد، وهى كذلك ترى بذكاء العاطفة ورهافة الحس، جانبَ القوة فى الرجل، فتذوق منه طعماً يملأ وجدانها بالإعجاب والرضا، والسعادة التى تملأ عليها أقطار نفسها، والرجل صالح لأعمال التكسب فى الخارج، ويجد سعادته الغامرة وهو فى صراع مع الحياة، وهو صراعٌ يرضى طموحه، ويؤكد ثقته بنفسه، ويجدد فيه عناصر القوة والعزيمة والانضباط، وعندما تشعر المرأة بمكانتها، وعملها، ويشعر الرجل كذلك، حيث كُلٌّ فى ميدانه، نجد الحب يغمرهما، ويترتب عل ذلك: السكن النفسى، وتكون ثمرته الشعور بالرضا والهناء.

قد نجد أن بعض الأصوات أحياناً تنادى: بأن المرأة تستطيع أن تستعمل حظها من العقل كما يستعمله الرجل فى أعمال التكسب من الخارج، وفى نفس اللحظة يستعمل الرجل حظه من العاطفة فى تحقيق السكن ورعاية الأولاد وتهيئته، فإن هذه الصيحة ليست أمينة ولا صادقة، لأن مَنْ ردَّدها لم ينظر إلى المواهب التى مُنِحَتْ لكلٍّ من الذكر والأنثى، ولم يعرف طبيعة الجنس البشرى، وما لكل من الذكر والأنثى من خصائص، ولِحِكْمَة تدق على الألباب: أقْسَمَ الله بهما، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾[1] وهو سبحانه أَحْكَمُ من أن يُقسم بهما ليمهد لِلَذَّةٍ جنسية تنشأ بينهما، وإنما يريد أن ينبِّهنا إلى أنه خَلَقَ خلقه وفق نواميس تُحقق مراداً لله جل وعلا من هذا الخَلْق، ليس مراداً لذاته، وإنما لمعرفة الله وعبادته، وإلى ذلك أشار الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]. إننا عندما ننظر بدقة لنوازن بين عَمَل الرجل وعمل المرأة ـ من حيث الجدوى على الحياة ـ نرى أن المرأة ذهبت بالمكانة العالية السامية، لأنها تنجب الذرية وتحفظ تسلسل الحياة، والرجل يقوم على جلب الرزق والنهوض بالإنتاج وتنمية الثروة.

وبالنظرة القريبة نرى أن عمل المرأة أشق، لأنها تحمل الجنين، وتَلِد، وتُرضع، وتُرَبِّى، وترعى الزوج، وتُمَرِّض، وتُدبِّر، وتخدم فى أكثر الأحوال، وتثمر السَّكَن والمودَّة والرحمة. إن الذين يتصايحون بأن المرأة فى المجتمع الإسلامى عاطلة، مع كونها نصف المجتمع ولا يسمح لها بالعمل خارج بيتها، من هنا تأخر المجتمع الإسلامى، نقول لهم: كيف وهذا مكانها فى بناء الأسرة واستقرار المجتمع؟ أم إنها تكون ـ على حسب زعمكم ـ عاملة عندما تذهب إلى المصنع، وتخرج إلى الديوان، وتجلس فى البنك صَرَّافَة أو كاتبة، وتتخلى عن أسرتها، وتترك أولادها يضيعون فى زحمة الحياة، ومن ثَمَّ تتفكك الأسرة ويتشرد الأولاد؟!

إن قيام المرأة فى بيت زوجها راعية لماله، مدبِّرة لأمره، مدركة لأهداف

---

(١) سورة الليل.

(٢) سورة الذاريات.

زوجها وأمومتها، عاملة لها، مراعية لحقوقها فى صِدْقٍ وإخلاص، كل ذلك كافٍ لملء فراغها القلبى والعقلى، وهذا ما تقرره الكاتبة الأمريكية «أفيليس ماكجنلى» تقول فى مقال بعنوان: «البيت مملكة المرأة بدون منازع»: وهل نُعَدُّ ـ نحن النساء ـ بعد أن نلنا حرياتنا أخيراً خائنات لجنسنا إذا عُدْنا لدورنا القديم فى البيوت؟ وتجيب بقولها: «إن لى آراءً حاسمة فى هذه النقطة، فإننى أصرّ على أن للنساء أكثر من حق فى البقاء فى البيت كربَّات بيوت، وإننى أُقدِّر مهنتنا وأهميتها فى الحقل البشرى، إلى حد أنى أراها كافية لأن تملأ الحياة والقلب»[1]. إن هذه الكاتبة تعيش فى مجتمع لا يرحم المرأة، وإنما هى كالرجل فى كل ميدان، ومع ذلك تتكلم بلسان الأنثى، وهى تعيش التجربة وترى ما أصاب المرأة وما حلّ بالأسرة هناك. إنَّ كُلًا من الرجل والمرأة له ميدان عمل، فإذا أدَّى كل واحد دوره فى ميدان عمله استقامت مصلحة الأُمَّة على أكمل وجه، أما إذا أُهمل ميدان على حساب ميدان آخر فلا قيام للمجتمع، ولا مَجْدَ للأمة، إذ يكون نصف المجتمع عاطلًا، علاوة على التحلل من القيم، والاستهتار بالأخلاق. يقول «برنارد شو» وهو كاتب إنكليزى: «إن العمل الذى تنهض به النساء، العمل الذى لا يمكن الاستغناء عنه، العمل الذى لا يمكن الاستعاضة عنه بشىء آخر، فهو حَمْلُ الأجِنَّة، وولادتهم، وإرضاعهم، وتدبير البيوت من أجلهم، ولكنهن لا يُؤْجَرْنَ عليه بأموال نقدية، وهذا ما جعل الكثيرَ من الحمقى ينسون أنه عملٌ على الإطلاق، فإذا تحدَّثُوا عن العمل جاء ذِكْر الرجل على لسانهم، وأنه هو الكادح وراء الرزق، الساعى المُجْهَد وراء لقمة العيش، وما إلى ذلك من الأوصاف التى يخلعونها عليه فى جهل وافتراء.. أَمَا آنَ للمرأة أن تعمل فى البيت؟ إن عملها فى البيت منذ الأزل كان عملًا ضروريًا وحيويًا لبقاء المجتمع، فى حين يشغل ملايين الرجال أنفسهم، ويبدِّدون أعمارهم فى كثير من الأعمال التافهة، ولعل عذر الرجال الوحيد فى قيامهم بتلك الأعمال أنهم يعولون زوجاتهم اللَّاتى لا يمكن الاستغناء عنهن، ومع ذلك فالرجال مغروررون لا يريدون أن يفهموا»[2].

(١) مجلة المختار، عدد مارس ١٩٦٠.

(٢) مجلة الهلال، عدد مارس ١٩٦٥، تحت عنوان: المرأة.. إلى أين تتجه؟.

أثر عمل المرأة على الأسرة والمجتمع:

إن العمل فى ذاته مشروعٌ، وغير مُحَرَّم على أحد ما دام فى غير معصية، لكن مراعاة الفِطْرة ومنطقها أمر مهم جدًّا. يقول الصحفى «محمد زكى عبد القادر» فى بابه «نحو النور» الذى كان ينشر في جريدة الأخبار: «إن المرأة ستتجمد فى مجال الحُكم عند عدد محدود من النساء البارزات، كما تجمدت فى مجالات أخرى من مجالات العمل، كالهندسة، والطب، والمحاماة، والتجارة، والصناعة، فعلى الرغم من أن بلوغ مناصب العمل البارزة فى هذه المجالات لا يتطلب من الجهد والمقدرة والاستعداد ما يتطلبه بلوغ مقاعد الحُكم، فإن أثر المرأة فى هذه المجالات ظَلَّ محدوداً، ولا يبشِّر بتقدُّم كبير، لأن طبيعتها تفرض عليها الاتجاه إلى أعمال أخرى أقرب إلى استعدادها وظروفها الخاصة المعروفة».

إن البيت هو المكان الطبيعى للمرأة، وبقاءها فيه هو الأصل، والخروج منه لمقصد مشروع هو الفرع، فمن حقها أن تزاول أى عمل بدنى أو فكرى بأجر أو بغير أجر، على أن تلتزم الحشمة، وعدم الخلوة. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ ما يبيح لها الخروج مثل: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن**»[(١)]. فالمرأة لها أن تخرج إلى المسجد، ثم إن المرأة التى تعمل ستخرج صباحاً وتعود مساء، وتكون فى هذا كالرجل، تحتاج إلى الراحة والهدوء، فقد تساوت معه، وهى تعمل تسعى للحفاظ على الحضور والانصراف والمواظبة لتتقرب إلى رؤسائها، لتنال الترقية والعلاوة وغير ذلك مما يسعى إليه الرجل تماماً، وليس عندها وقت لوضع لمسات الجمال فى المنزل، بالتالى فهى تقوم بشراء طعام مطهو من الخارج، محفوظ فى الثلاجة، فَقَدَ طعمه، فهل يجد الرجل السكن مع زوجةٍ كهذه؟ إنِ اشتكَى فهى قبله مُتْعَبة، وقد أصبحت مثله «كَسِّيبة»، فلن تتحمل همومه، ولن تستمع إليه، فيفقد البيت مُتعة الحياة وبهجتها، ومن المعلوم أن البيت إذا اهتز وفقد رونقه وعصفت به الرياح أصبح الرجل شارداً لا ينتج ولا يثمر ولا يعمل، ونأخذ العبرة مما يجرى فى الغرب، حيث اهتزت الأسرة هناك، لأن المرأة

(١) «بدائع الصنائع» للكاشانى، ج ٢.

اعتمدت على نفسها فى كسب قوتها، فأحست بقوّتها واستقلت برأيها ونفسها، وانسلخت عن ولاية الأولياء عنها، ودفعها ذلك إلى أن ترتمى فى أحضان مَنْ تشاء، تُشبع رغبتها فى مُتعة حرة حسب هواها، وَزَيَّن الشيطان لها ذلك وفتح الطب أمامها كيفية التخلص من الحمل الذى يُضايقها، بل ويعوقها عن متعتها وعملها، والتنزه هنا وهناك، فأخذت تتخلَّص من الحمل بالوسائل المعروفة، فانطلقت فى اللهو، والتردُّد على أماكن الملاهى بكل أنواعها، فتفككت الروابط الأسرية، وكثر أبناء الزنى ـ الأبناء غير الشرعيين ـ وقامت جمعيات على حماية هؤلاء أطلقوا عليها جمعيات «حق الحياة»، وهكذا.. ونظراً لهذا التفكك، وهذا التخبط، أصبحوا لا يشعرون بالسكن النفسى، وأصبحت الأسرة مُفكَّكة غير مترابطة، فأقاموا الأعياد، مثل «عيد الأم»، و«عيد الحب» وكثرت كلمة الأعياد عندهم، ومع ذلك لم تُعطهم طعم الحب أو السعادة، فأقبلوا على الانتحار، حيث توجد أعلى نسبة انتحار فى الغرب، لأن أرواحهم خالية من الإيمان، وليس عندهم أَمَل فى غدٍ مشرق بأنوار الحق، وهدى الله القائل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾(١).

لقد تطرق إلى هذا الموضوع السيد أبو الأعلى المودودى، فقال: «إن استقلال النساء بمعايشهن، واضطلاعهن بشئونهن الاقتصادية قد جعلهن فى غِنًى عن الرجال، وتبدل المبدأ القديم القائل: «أن يكسب الرجل القوت وتدير المرأة البيت»، وحلّ محله رأى جديد يقول: «أن يكسب الرجل والمرأة كلاهما، والبيت تُفَوَّض شئونه إلى الفنادق والشركات» فزال بذلك ما كان يُرَغِّبُها فى العشرة البيتية، ويحملها على الارتباط الزوجى، ولم يبقَ بعد هذا الانقلاب بينهما غير الصلة الجنسية، وهى ليست بالأمر الذى يضطر الرجل والمرأة أن يتعاشرا فى بيت واحد فى نير الرابطة الزوجية الأبدية، فالمرأة تكسب عيشها بيمينها ولا تحتاج إلى زوج يرعى أمرها، وقَيِّم يُشرف عليها، ما لها تُلازم رجلًا بعينه لقضاء وطر الجنس؟ لقد مهدت لها المساواة المزعومة بينها وبين الرجل الطريق إلى ما تشتهى، فلماذا لا تقتحمه؟ وقد غدا المجتمع الذى كان يؤنِّبها على غوايتها يتلقَّاها بالبِشْر والترحاب،

(١) سورة التغابن، الآية ١١.

وآخر ما كانت تخشاه هي وأخواتها هو المولود، فَأَذْهَبَ هذا الخوف عن نفسها ما ابْتُكِرَ من أساليب رعايته، أو التخلص منه، ولا لوم على الفتاة مع ذلك فى كونها أُمًا لابن زِنًى، لأنهم خلعوا عليها ألقابَ التكريم، حتى سموها «الأم العذراء». وقد بلغ من تأثير هذا فى النفوس أنَّ من يتجرأ على ازدراء هذا الوضع يبوء بتهمة الرجعية، ويُحكم عليه بالتخلف والجمود، حتى لقد أتى على بنيان المجتمع الغربى من القواعد، وزلزل كيانه زلزالاً»[1].

إن سُنَّة الحياة تفرض الكمال فى الإنتاج، وتدفع إلى أساليب الابتكار فى كل ما من شأنه أن يرقى بالحياة، وقد جهزت العناية الإلٰهية كل كائن من البشر بمزايا، وجعل لكل جنس ميداناً عليه أن يجيد فيه ويبتكر، لتتقدم الحياة وتزدهر، وتنمو الحضارة، إلى أن يبلغ كل عمل مداه من الإجادة الإنتاجية. وقد قال الرسول ﷺ: «**إن الله يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحدكم عملاً أن يُتقنه**»[2]، وفى حديث آخر: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء**»[3]. وإتقان العمل والإحسان فيه هو تجهيز العمل المُسْنَد إلى الشخص بكل ما يرفع مستوى الأداء فيه، والتقصير شيء مُعيب، يترتب عليه فساد المُنْتَج، وزهد الناس فيه، كذلك الأسرة إذا أهملتها المرأة، وأعرضت عَمَّا أسنده إليها خالقها، فإن ذلك اتِّبَاعٌ للهوى، وإعْرَاضٌ عن نواميس الحياة، وهذه عوامل تؤدى إلى زوال السكن الروحى، والاستقرار النفسى للأسرة.

كتب الأستاذ «أنيس منصور» فى جريدة الأخبار تحت عنوان «مواقف» يقول: «نحن ننظر عادة إلى التفرغ للحياة الزوجية على أنه ليس عملًا، مع أنه فى الحقيقة عمل اجتماعى، واقتصادى، وتربوى، ونفسى، وبعض الدول الأوروبية تدفع أجراً للزوجة على أنها تعمل فى البيت، كأستراليا مثلًا، ولن يمضى وقت طويل حتى تجد المرأة نفسها أمام هذا الاختيار، إمَّا العمل وإمَّا الطفل، ولن تتردَّد أبداً فى أن تختار الطفل». هذا كلام رجل له جولاته فى العالم، وهو يقرر حكم الواقع الاجتماعى.

(١) «كتاب الحجاب» لأبي الأعلى المودودى.
(٢) رواه البيهقى.
(٣) رواه أحمد.

إن المرأة في الغرب فقدت السعادة، والهناء، والاستقرار، عندما شربت كأس الملذات، وذهبت إلى المراقص والحانات، وجلست في الأندية الليلية حتى مطلع الشمس، ثم انطلقت إلى تحقيق المساواة بالرجل، فزاحمت الرجل في السفر، وركوب الطائرات، وقيادة السيارات، وحرصت على لبس البنطلون والجاكت، ودخلت المصانع، ووقفت أمام فرن النار، وأمسكت بالمنشار، واستعملت المخرطة، وأدمت بنانها، وأرهقت بدنها، لماذا كل ذلك؟ هَلَّا أنصفت نفسها؟ هَلَّا أنصفت الواقع؟ هَلَّا أنصفت الحقيقة؟ الواقع يقول: «لا»، إنها أهملت أشرف خصائصها، ولم تنصف نفسها، ولم تحافظ على كيانها الاجتماعي، وتخلَّت عن أشرف وظائفها. كنا نأمل أن تكون هناك معاهد خاصة بالمرأة تتعلم فيها فن الحياة الزوجية، وفن إعداد البيت، ووضع لمسات الجمال فيه، وكيف تحافظ المرأة على رشاقتها وجمالها، وأنوثتها أثناء الحمل، وبعد الولادة، وتربية الأبناء، وكيف تصنع للتاريخ نماذج من الأُمَّهات الفُضْلَيات الكريمات.

إننا لا ننكر ما حدث في المجتمع من ثورات صناعية واقتصادية وسياسية، وما نشأ من فكر فلسفي، وما نشأ في المجتمع من انهيار خُلُقي بعد الحروب العالمية التي غيَّرت المفاهيم، وأثَّرتْ في السلوك البشرى، حيث شمل ذلك الرجل والمرأة، وقد ظهر التفلُّت في السلوك، وعدم الانضباط، وخرجت المرأة تسعى على رزقها، بعد مَوْت العائل، وفَقْد الوالد والولد، ولها مُطْلق الحرية بلا قيود، فأصبحت تغشى الملاهي، وتجلس إلى مائدة القمار، وتشرب الخمر، وتمارس علاقتها الجنسية بالرجل الذى تريده. ثم إنها تعلَّمت كما يتعلَّم الرجل، وأهملت شأنها، عندئذ بدأت تُزاحم الرجل في عمله، وبهذا ضَيَّقَت على الرجل الفرصة، فأصبح لا يجد عملًا في حين هي تسبقه، لأن لديها مؤهلات ليست عند الرجل، وتَعَطَّلَ الرجل، فارتاد المقاهي، وأصبح قوة غير منتجة، وظلت هي سائرة في الطريق، ونظراً لما تتعرض له شهريًا وسنويًا عجزت عن الإتقان، وأساليب الابتكار، فتخلَّفت الصلرجل في عمله، وبهذا ضَيَّقَت على الرجل الفرصة، فأصبح لا يجد عملًا في حين هي تسبقه، لأن لديها مؤهلات ليست عند الرجل، وتَعَطَّلَ

الرجل، فارتاد المقاهى، وأصبح قوة غير منتجة، وظلت هى سائرة فى الطريق، ونظراً لما تتعرض له شهريًا وسنويًا عجزت عن الإتقان، وأساليب الابتكار، فتخلَّفت الصناعة، وأُهملت الأُسَر، لهذا كانت الصيحات التى تتردد بين الحين والحين: افتحوا الباب للشباب فهم يبنون البيوت ويتزوجون، وتعمل المرأة فى ميدانها، فتعود البسمة للحياة وتُشرق شمس الغد كأحسن ما تكون، فهل من سبيل لتحقيق هذا؟ نرجو ذلك، وإنا لمنتظرون.

سَفَر الرَّجُل للخارج وتَرْك الزوجة والأولاد:

لقد توسَّعت إليك يا ابنتى فى الرد لأضع النقط فوق الحروف، ولتكون القضية أمام عينيك، لأنها قضية أُمَّة، بل قضية المجتمع الإنسانى كله، الذى نرجو له الرشاد. وأحب أن أوضح أمراً آخر، هو: سفر الرجال للخارج، خارج بلادهم، وترك الزوجة والأولاد، فهذا أمر ما كان ينبغى إلاَّ فى حدود ضيقة، وإذا أرادَ الرجل أن يسافر فليحدِّد مدة سفره بمدة لا تزيد على ستة أشهر، ثم يعود لزوجته وأولاده يتفقَّد أحوالهم ويرعى شئونهم، ويوجِّههم، ثم يسافر لمدة لا تزيد على ستة أشهر ثم يعود، وهكذا، لأن غياب الرجل سنة عن بيته أو أكثر يفتح باب الخسارة على هذه الأسرة، فالمرأة إذا لم يكن لديها عصمة من دينها فسوف تتفلَّت، والأولاد يضيعون، ولعلنا نذكر ما تنشره وسائل الإعلام عندما أغرت الأم عشيقها بالاعتداء على ابنتها وفضّ بكارتها، لأن البنت رأت أُمَّها فى وضع شاذٍّ مع عشيقها، والأب غائب، وتخشى من البنت أن تُحَدِّثَ أباها بذلك، ثم تُسَوِّل لابنتها ممارسة الجنس مع من تشاء. وكذلك المرأة التى اتفقت مع عشيقها على قتل زوجها والتخلص منه ليخلو لهما الجو مع مال الزوج الذى جمعه فى غربته. وأيضاً المرأة التى تزوجت بعقد عُرفى وادَّعت أنها أرمل، ثم حضر زوجها، فقالت للزوج العرفى: أنت حبيبى لك ما تشاء، وقتما تشاء، وعندما رآها زوجها مع الزوج الجديد ذهب إلى قسم الشرطة بعد مشاجرة، فأخرج الرجل عقد الزواج العرفى... وهكذا كثير من المفاسد والأضرار التى حاقت بالأسرة بسبب غياب الزوج. وقد يكون ما حدث معكِ يا ابنتى أن امرأة أخرى لعبت بعقل الزوج والأب الذى نسى

كل الواجبات فى سبيل هذه الزوجة «الكسّبية» الجديدة التى أَلْهَتْه عن واجبات الأُبُوَّة ورعاية الزوجة الأولى، وانساق هو وراء نزوة طائشة.

إنَّ القرآن الكريم يوجِّه الزوج إلى أنه لا يجوز له أبداً أن يهجر زوجته أكثر من أربعة أشهر. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[1]. وقد عرَّف العلماء الإيلاء بقولهم: «هو يمين يوقعه الرجل على زوجته ألاّ يقربها مدة معينة»، وكان الإيلاء والظهار يتخذه الرجل فى الجاهلية وسيلة إذا أراد إلحاق الضرر بزوجته فيحلف ألاّ يقربها سنة، وبانتهاء المدة يكرر الحلف فتكون المرأة مُعَلَّقة، لا هى مطلقة ولا هى متزوجة، ثم جاء الشرع الحنيف وجعله يميناً ينتهى بمدة أقصاها أربعة أشهر، فإن حلف الرجل مرة أخرى على امرأته فهو حانث فى يمينه وتلزمه كفَّارة، فإن استمر على ذلك الحلف فعلى المرأة أن ترفع أمرها للقاضى إن شاءت، فيأمره بالعودة إلى زوجته، ويعاشرها، فإن لم يستجب طلَّق القاضى هذه المرأة نيابة عن زوجها، ويقع الطلاق بائناً بينونة كبرى. هذا هو حكم الإسلام: نَفَى الأذى عن المرأة، ونَهَى عن الضرر بها، لأن الشخص السَّوِىّ لا يرضى هذا لأُخته، ولا لابنته، كذلك هو لا يرضى الأذى لبنات الناس، فإن الزواج سَكَنٌ للنفس، وراحة للبال، ومودَّة بين الأُسَر.

ومن المعلوم أن سبب الموافقة على هجر الزوج لزوجته مدة أربعة أشهر ما رواه الإمام مالك ـ رحمه الله ـ فى «الموطأ» عن عبد اللّه بن دينار قال: خرج «عُمَرُ» ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيراً، إذْ سمع امرأةً من نساء العرب قد أغلقت عليها بابها تقول:

تطاوَلَ هذا الليلُ واسْوَدَّ جانِبُهْ ... وأَرَّقَنِى ألاّ خَلِيلَ أُلاعِبُهْ
أُلاعبه طَوْراً وطوراً كأنما ... بَدا قمراً فى ظُلمة الليل حاجِبُهْ
فوالله لولا الله لا شَىءَ غَيْرُهُ ... لَحُرِّكَ من هذا السرير جَوانِبُهْ
مخافة ربى والحياء يَصُدُّنِى ... وأُكْرِمُ بَعْلِى أَنْ تُنالَ مَراكِبُهْ

(١) سورة البقرة.

ولكنَّنى أَخْشَى رَقِيباً مُوَكَّلا ... بأنفسنا لا يَفْتِرِ الدَّهرَ كاتِبُهْ

وفى الصباح سأل «عمر» عن صاحبة الدار، فعلم أنَّ زَوْجَها فى الجهاد، له أكثر من ستة أشهر، فذهب إلى ابنته «حفصة» ـ أم المؤمنين، وزوجة النبى العظيم ـ وسألها: ياابْنَتِي، كم تصبر المرأة على غياب زوجها؟ فقالت: سبحان الله! مثلُك يسألُ مثلي؟ تعنى الأب يسأل ابنته عن ذلك؟ فقال: أجيبينى فإننى أُريد أن أضعَ تشريعاً فى هذا الشأن. قالت: تصبر أربعة أشهر، أو خمساً، أو ستَّا، وهذه أكثر مدة. فكتب «عمر» إلى رؤساء الجنود، أنظروا فيمن معكم مَنْ مَضَى عليه فى الجيش أكثر من ستة أشهر يعود فوراً. ثم بعد ذلك حُدِّدَت المدة بستة أشهر لا تزيد.

أرأيت أيها القارئ الكريم عقلية المسلم، وتخطيط القائد، وتنظيم الدولة، كل ذلك من أجل الحفاظ على الكيان الاجتماعى للأسرة، ورعاية لحق المرأة. إنَّنا نذكِّر الناس بتعاليم الدين، ونقول لهم: الإحسان فى المعاملة هدف إسلامى، والمعاشرة بالمعروف واجب دينى، ورعاية حق المرأة غاية نبيلة، بحيث لا يكون هناك ضرر يقع على أحد الطرفين لتكون الحياة سعيدة تتَّسم بالمودَّة، بلا ضغوط من بيت الطاعة الذى ابتدعه من لا يفهمون الإسلام، ولا يعرفون طعم الحياة التى تُؤَسَّس على المودَّة والحب، والعدل والإحسان. فهل لنا أن نفهم أن قضية المرأة فى عصرنا ما هى إلاَّ شمَّاعة يُعَلِّق عليها الأغبياء أخطاءهم باسم الإسلام الذى هو برىء من كل ذلك، لأن الله سبحانه يأمر بالعدل والإحسان، ولا يرضى بظلم أحد، لأنه سبحانه حَرَّمَ الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرَّماً لأنه سبحانه لا يحب الظالمين، وقد قال الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[1].

إن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو أعلم بخلقه وبما يصلح شأنهم،

---

(١) سورة الأنعام.

ويحفظ عليهم كيانهم الاجتماعى، واستقرار أنفسهم، وهدوء عواطفهم، فشَرَعَ لهم ما يحقق ذلك لأنه سبحانه أعلم بعباده: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1]. لهذا كان تحديد مدة الإيلاء بأربعة أشهر رعاية لجانب المرأة وعدم إلحاق الضرر بها وظلمها، لأن الله لا يحب الظالمين.

إن العادات والتقاليد المقلوبة والمغلوطة كثيراً ما تقوم بدور كبير فى تغيير المفاهيم وقَلْبِ الحقائق، وهذه العادات ـ للأسف ـ ما زالت تُلقى بظلالها المريبة على نظرة الكثيرين للمرأة. والإنسان عندما يتخطى هذه العادات والتقاليد تجاه المرأة يجد أنها لا ترتبط من قريب أو بعيد بتعاليم الدين، وقيم الإسلام التى تقرر أن الرجل مساوٍ للمرأة فى المسئولية والجزاء، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾[2]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾[3]، ويقول جلَّ وعلا: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[4].

الإسلام يكفل للمرأة حق العمل:

إن القرآن يؤكد على أن مسئولية المرأة مستقلة تماماً عن مسئولية الرجل. فالإسلام يبيح للمرأة أن تعمل ولا يوجد نص يمنعها من الخروج من المنزل لكى تسعى إلى عمل شريف طالما هى أو المجتمع فى حاجة إلى ذلك. فالمرأة فى عهد النبى ﷺ كانت تعمل فى رَعْى الغنم، كما كانت تخرج مع الجيش تعالج المرضى، وتقوم بأعمال النظافة وقطع الثمار، بل كانت تركب البحر مع الجنود المجاهدين

(١) سورة المُلك.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩٥.
(٣) سورة النساء.
(٤) سورة النحل.

في سبيل الله.. وعمر بن الخطاب عَيَّنَ «الشّفاء» ـ وهى امرأة ـ على سوق المدينة تُنظِّمه وتضع له الضوابط، وكانت أحكامها نافذة على الرجال والنساء. وقد أقامت العدل، ووضعت ضوابط للمخالفات، ونجحت فى ذلك، وكان لها شأن عظيم.

إن الإسلام يكفل للمرأة حق العمل كما يكفله للرجل ويعتبر خروج المرأة وسعيها للإنفاق على نفسها أو أسرتها صدقة وثواباً تُؤْجَر عليه، على أن يكون هذا العمل فى إطار مقاصد الشريعة، وفى إطار الاحتشام والاحترام، وعدم الخلوة مع رجل أجنبى عنها.

إهمال شأن البيت والزوج والأولاد:

إن بعض النسوة حين اتَّجَهْن إلى العمل الخارجى تركن المنزل والأسرة، وأهمَلْنَ الأطفال، وأصبحن لا يعرفن عن أولادهن أى شىء، وكأنهم أولاد الجيران.. فهى تحب البيت إذا كان ساكناً لا حركة فيه للأولاد، ولا صوت لمناقشتهم، ولا وقت عندها لمعرفة مدى استيعابهم للعلوم وجدّيتهم فى المذاكرة. إنها مُتْعَبة ومُرْهَقة، لذلك حدثت خلخلة عائلية، وتصدُّع أُسَرِيّ أدى إلى أن بعض الأولاد فى سن العاشرة صاروا يدخِّنون السجائر وبعضهم يسرف فى شرب القهوة وتناول الشاى، وأصبح غذاء الأطفال باكو «بطاطس» مُعَبَّأ، أو قطعة «شيكولاتة» أو باكو «بسكوت» فأُصيب الأطفال بأنيميا حادَّة، وضعف فى الأبصار، وصداع بالرأس وامتلأت المستشفيات والعيادات الخاصة بهم.

المناداة بعودة المرأة إلى البيت:

وانظر لِمَا جرى على الساحة أخيراً من بروز ظاهرة البلطجة بين بعض الأطفال، وظهور جيل من الأطفال مضطرب الأعصاب. هذا وغيره جعل الكثير من الكُتَّاب والمهتمين بالأسرة والطفولة يبحثون عن العلاج، وكُلٌّ له دواء يقدِّمه، لكن التشخيص غير صحيح، وأَصَحُّ شىء وأعظم «رُوشِتَّة» نقدِّمها للمرأة هى أن نقول لها: «عُودى إلى بيتك أيتها المرأة، نظِّميه، وَضَعى فيه لمسات جمال لتجذبى

الرجل أولاً ليعود إلى بيته بدل المقهى أو النادى، ويعود الطفل بدل أن يرتمى فى أحضان أصدقاء السوء أو يتلقَّفه ذَوُو الضَّمائر الفاسدة والذمم الخربة».

هذا، وقد طالعتنا جريدة أخبار اليوم(1) بالكلمة الآتية، للكاتب الصحفى أحمد رجب، تحت عنوان «عودى يا سيدتى» يقول فيها: «أليس من الأفضل أن تعود المرأة العاملة إلى بيتها قبل أن يتحوَّل ابنها من المدرسة إلى عصبى وبلطجى ومدمن مخدرات؟ إننى لستُ ضد أن تعمل المرأة لكننى ضد أن نُبعدها عن وظيفتها الأساسية فى الأسرة، والمثل يقول: «ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع»، فظاهرة التلميذ البلطجى مؤشر خطير جدًّا.

إن المدرسة فقدت دورها التربوى بتكدُّس التلاميذ وحتى عندما كانت المدرسة مدرسة بحق كانت الأم هى ضابط الاتصال بين البيت والمدرسة... ألا يعنى غياب دور المدرسة أن وجوده أصبح ضرورة مُلِحَّة؟ نحن نعرف أن الحياة أصبحت قاسية وتقتضى تعاون الزوجين للوصول إلى دخل مناسب، ولكن من ناحية أخرى: أليس من الخطر الحقيقى أن تترك الأم مهمة التربية للشَّغَّالة؟ وأليس غريباً أن هناك العديد من الحالات التى تقبض فيها الشَّغَّالة ما يفوق مرتَّب الأم؟ وأمام التفكُّك الأُسرى المؤسف الذى أَفْرَزَ التلميذ البلطجى والتلميذ المدمن، ألا يجب على الدولة أن تتدخل فتعين الأسرة بمعاش مناسب للأم العاملة إذا أرادت التفرُّغ للبيت؟ ألا تعتبر الدولة فى هذه الحالة هى الرابحة بإعطاء الوظيفة لشابٍّ عاطلٍ، وتوفير مقعدٍ فى المواصلات، والأهم من هذا كله عودة الإشراف على سلامة وصحة الخليّة الأولى فى المجتمع ـ وهى الأُسرة ـ أيهما أجْدَى للدولة: أن تعود رقابة الأم فى البيت أَمْ «تَقَمُّع» البامية وتقشر البطاطس فى مكتب الحكومة؟

أليس غياب الأم عن البيت هو الذى وصل بالسلوكيات إلى هذه الدرجة المخيفة من التَّدَنِّى، حتى إنه عندما زارنا فى العام الماضى رئيس جمهورية تتارستان ـ إحدى جمهوريات آسيا الوسطى ـ تعجبت كثيراً عندما اكتشفت أن فيه تتار غيرنا»!. هـ.

(1) الصادرة بتاريخ ٢٨/٣/٩٨.

قراءات في أوراق قديمة

بينما كنتُ أبحث فى أوراق قديمة إذْ وجدتنى قد سجلت بعض الإجابات على أسئلة تلقيتها أثناء عملى إماماً وخطيباً ومدرِّساً بمسجد أحمد بن طولون فى أوائل عام ١٩٦٢ م. وهى كانت إجابات لأسئلة من السيدات اللّائى كُنَّ يحضرن فى المسجد، هذه الأسئلة والإجابات.. ما يلى:

ـ تقول السائلة: ركبتُ «الأسانسير» أنا ورجل من السكان، زوجته صديقتى، فوجدته يقول لى: أنا بحبك وكاتم فى قلبى، أريد أن ألقاكِ يوم كذا ـ الساعة كذا ـ فى مكان كذا. وفى أثناء كلامه كنتُ أرتعش من الخوف. ولاحَظَ زوجى علىَّ أثناء دخولى إلى بيتى ما يعلونى من ارتباك واضطراب، فسألنى عن ذلك، فقلت له: «ما فيش حاجة». وجئتُ أسألك: ماذا أفعل تجاه هذا الأمر؟

قلت لها: أين كان هذا؟ وفى أى يوم؟ قالت: فى العمارة التى أسكن فيها، وفى صباح هذا اليوم. قلت لها: اذهبى إلى زوجك الآن، وقولى له: هناك خطأ نريد أن نعالجه برفق ولين، ولا بد أن نهدِّئ أعصابنا حتى نعالجه، وكلِّميه على أن هذا الرجل ـ فلان ـ يجب علينا أن نُقاطعه ونقطع العلاقة التى بيننا وبينه، لأنه رجل «مش كويس» فنظراته لى مُريبة، ثم تمنعين زوجته من دخول بيتك، وإنْ سَألَتْكِ أىَّ مساعَدَة، فاجعليها تقف على الباب واقضيها لها، فإن سألتك ما السبب فى تلك المعاملة؟ فقولى لها: الاقتصار أفضل، وهكذا. ثم إذا هدأت النفوس، صارحى زوجَك بما حدَثَ، لأنه ربما يثير حولك الأقاويل لينصب شِباكَه حولك، لأن الرجل الخسيس لا يبالى بالكلمات يُطلقها ولا يعرف أبعادها، المهم أن تكونى لَبِقَة وأنت تحكين لزوجك، حتى يقاطعه ولا يسمح له بالتردد على بيتك، وكذلك أهل بيته.

وقالت سيدة أخرى: هل المرأة إذا وجدت نفسها مع رجل أجنبى فى «الأسانسير» وحدهما عليها أن تخرج فوراً، لأنه أشبه بالخلوة؟ قلت لها: نعم، هذا هو الرأى الصواب، فالأسانسير كالحجرة المغلقة، ويمكن إيقافه بين الأدوار، وقد يتطاول الرجل فيه حينئذٍ على المرأة، لذلك على المرأة العاقلة أن تتجنَّب مثل هذه المواقف.

وقالت سيدة أخرى: «طيب ما هو االتاكسى كذلك! أنا مرة ركبت التاكسى وحدى، وإذا بسائق التاكسى يقول لى: تفصيلة ملابسك جميلة وحسنة الصُّنع.. مين خيَّاطك؟ فلم أرُدّ عليه.. فنظر فى المرآة وقال: واللا الحشو اللِّى محلِّى القماش! قلت له: قف. ونزلت من التاكسى ولم أدفع له أجره وانصرفت بعيداً».

فقالت أخرى: «كان المفروض تضربيه بالـ...».

فقالت لها: «أنا امرأة ويمكن يبهدلنى».

فقلت لها: لقد كان تصرُّفك صحيحاً.. وهكذا نرى أن السائق يعتبر التاكسى غرفة مغلقة، فيتمكن من الكلام المعسول الذى يُوقع المرأة فى شباكه. لهذا على المرأة ألاَّ تركب التاكسى وحدها، كذلك لا تركب مع أشخاص لا تعرفهم، لأنهم قد يكونون من الذئاب الذين يبحثون عن فريسة. فإن كانت مضطرة فعليها أن تكتب رقم السيارة فى ورقة وتضعها فى طيات ملابسها، أو تحفظ الرقم إن استطاعت.

إن المرأة الشريفة تعيش وكلها أحاسيس، ترقب الواقع، وتقدِّر الظروف، وتكون يقظة. وهذا يؤكد أن نظرية الإسلام صحيحة ١٠٠٪ عندما نبَّه نبىّ الإسلام العظيم أن الخلوة بين الرجل والمرأة شَرٌّ، لأن الشيطان ثالثهما، وقد رأينا الواقع يؤكد هذا، والعاقل لا يقبل أبداً هذا لأُمّه، ولا لأخته، أو زوجته، أو ابنته. إن مجتمع المسلمين هو مجتمع الطُّهر والعِفَّة.

قالت سيدة ثالثة: زارنا قريب لزوجى، وجَرَى العُرْف أننا نسلم على بعضنا، لكن قريب زوجى لم يُسلِّم على الإناث، وقال: الإسلام يؤكد على عدم مصافحة النساء.. واحنا طول عمرنا بنسلم على بعض ونصافح الرجال أصحاب أزواجنا،

فهل هذا حرام؟ فأجبتها بقولي: مصافحة الرجل للمرأة من الأمور التى ثار حولها الجَدَل، واختلفت فيها الآراء، فهناك من يُبيح المصافحة، وهناك من لا يجيزها، ومَرَدُّ هذا هو اختلاف العلماء فى تفسير قول الله تعالى: ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[1]، فهناك مَنْ قال بأن اللَّمْسَ هو الجماع، وهو ينقض الوضوء، وهناك مَنْ قال بأن اللمس يعنى ملامسة جسم المرأة بأى جزء وقيل: إن المصافحة لا تنقض الوضوء، وبهذا قال الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه وأصحابه، ولهم أدلَّتهم على ذلك.

والإمام الشافعي قال: إن لمس الرجل للمرأة ينتقض به الوضوء ولو كانت المرأة عجوزاً، والرجل كذلك، لأن اللمس هو لمس أى جزء بلا حائل بين الرجل والمرأة.

وقال الحنابلة: ينتقض وضوء الرجل إذا لمسَ امرأةً بلا حائل، وكان غرضه دنيئاً من التلامس، فهو يشعر باللَّذة عند اللمس، وهذا ذنب اقترفه، فوضوؤه ينتقض.

أما المالكية فَفَصَّلوا ذلك وقالوا: إذا سَلَّمَ الرجل على المرأة وهو يقصد اللذة، أو وَجَدَها بدون قصد، فإن وُضُوءَهُ ينتقض، وإن لم يجد اللذة ولم يشعر بها فإن وُضوءه لا ينتقض. كما أن بعض العلماء أكَّد على عدم المصافحة، واستدل على أن رسول الله ﷺ لم يصافح النساء، ولم تمس يده امرأة أجنبية لا تحل له، علماً بأنه هو الشريف الطاهر الذى لا يشك أحد فى نزاهته وطهارته وسلامة قلبه وعفَّته، وإذا كان هو العفيف ولم يثبت عنه أنه صافح امرأة فكيف نُصافح نحن والشهوة فينا غالبة؟ والشيطان يجرى فينا مجرى الدم فى العروق، والفتنة غير مأمونة؟ لذلك علينا أن نتجنب مصافحة النساء.

وقد رَوَى البخارى فى ذلك حديثاً للسيدة عائشة رضى الله عنها، إذ قالت: «كان النبى ﷺ يمتحن مَنْ هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾[2] إلى آخر الآية. تقول السيدة عائشة: فمن أقرَّ

(١) سورة النساء الآية ٤٣. وسورة المائدة، الآية ٦.
(٢) سورة الممتحنة، الآية ١٠.

بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايَعْتُكِ» «كلاماً»، ووالله ما مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امرأة قط فى المبايعة، ما يُبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتُكِ على ذلك»[1].

كما رَوَى الإمام أحمد عن أُميمة بنت رقيقة قالت: «أتيتُ رسول الله ﷺ فى نساء نُبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن: أَلاَّ نُشْرِكَ بالله شيئاً ـ الآية ـ وقال: «فيما اسْتَطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ». قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، ثم قلنا: يا رسول الله، ألا تُصافحنا؟ قال: «إنى لا أُصافح النساء، إنما قولى لامرأة واحدة هو قولى لمائة امرأة»[2].

هذا وغيره من الأدلة التى ساقها لها المانعون للمصافحة، وأكَّدوا على ذلك بقولهم: إن رسول الله ﷺ عندما يمتنع عن مصافحة النساء ـ وهو المعصوم والطاهر ظاهراً وباطناً ـ فإنما ذلك تعليمٌ للأُمَّة وإرشاد لها، لتَسْلُكَ طريق الحصانة النفسية والطهارة الجسدية.. إن رسول الله ﷺ ـ كما قلنا من قبل ـ هو الإنسان الكامل الفاضل الشريف، الذى لا يشك أحد فى طهارة مقصده وسلامة قلبه لا يصافح النساء ويكتفى بالكلام فى مبايعتهن، مع أن أمر البيعة عظيم الشأن، فكيف يُباح لغيره من الرجال مصافحة النساء؟ مع أن الشيطان يجرى فيهم مجرى الدم فى العروق، والشهوة فيهم غالبة؟ لذلك فإن الفتنة غير مأمونة، فمنع المصافحة أفضل.

أما الذين قالوا بإباحة المصافحة بين الرجال والنساء فقد رَدُّوا على مخالفيهم بأن هذا الموقف خاصٌّ برسول الله ﷺ، لأنه على درجة عالية من الخُلُق والكمال والوَرَع، وهو [redacted] يعزف عن المباح وَرَعاً منه، ثم إنه لم يثبت عنه ﷺ نهيه لغيره عن مصافحة النساء، بل إن الأمر على خلاف ذلك، فعندما فرغ النبى ﷺ من بيعة الرجال ـ يوم فتح مكة ـ جلس على الصَّفَا ومعه عمر أسفل منه، فجعل يشترط على النساء البيعة وعُمر يُصافحهن ـ قالت أم عطية: «لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة

(١) صحيح البخارى، ج ٨.
(٢) تفسير الألوسى، ج ٢٨.

جمع نساء الأنصار فى بيتٍ، ثم أرسلَ إلينا عُمَر بن الخطاب فقام على الباب، فسلَّمَ فَرَدَدْنَ عليه السلام، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكن، ألاَّ تُشْرِكْنَ بالله شيئاً. فقلن: نعم. فمدّ يده من خارج البيت ومَدَدْنا أيدينا من داخل البيت ثم قال: اللهم اشهد»[١].

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بالبيعة يوم العيد. كما رَوَى البخارى عن ابن عباس، قال: «شهدتُ الصلاة يوم عيد الفطر مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبى الله ﷺ، فكأنى أنظر إليه حين يجلس الرجال بين يديه، ثم أقبل يشقّهم حتى أتى النساء مع بلال، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾[٢] حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتنَّ على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة ولم يُجبه غيرها: نعم يا رسول الله. قال: «فتصدَّقْنَ» فبسط بلال ثوبه فجعلن يُلقين الفَتَخَ[٣] والخواتيم فى ثوب بلال».

ولا يخفى على أحد أن إقبال النساء على «بلال» لبذل الصدقة ووضعها فى ثوبه ـ مع كثرتهن فى يوم العيد وازدحامهن حول بلال ـ يُحدث أشكالاً من الملامسة أمام رسول الله ﷺ، ولم ينكر ذلك، فضلًا عن عدم إنكاره ﷺ مصافحة عمر للنساء ـ كما فى الأثرين السابقين ـ مِمَّا يدل على أن امتناع الرسول ﷺ عن مصافحة النساء كان من خواصِّه ﷺ. وفى ضوء روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية التى تُخاطب قلب الإنسان ووجدانه ومشاعره، وتربِّى فيه الضمير الحى واستشعار المسلم بالمسئولية أمام الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، كل ذلك يربِّى فى الإنسان ملكة المراقبة لله والرقابة الذاتية من الشخص

(١) تفسير القرطبى، ج ٢٨.
(٢) سورة الممتحنة، الآية ١٢.
(٣) الفَتَخُ: كل خلخال لا يُصَلْصِل.

على نفسه، وإلزامها طريق الصواب، وأمام هذا لا مانع من المصافحة ما دامت النية بريئة من دوافع الشهوة ووساوس الشيطان، حيث إنها صارت من الأمور المعتادة والمتبادلة، لأن العادة يفعلها الإنسان غالباً بطريقة آلية تلقائية بدون هاجسٍ نفسى أو تفكير ذهنى فى أمر ما يقترن بهذه العادة، ومن ثَمَّ فإنها تكتسب سمة البراءة والتلقائية، فلا حرج فيها ما دامت كذلك، وإلا: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾[١].

وهذا الموضوع متروك للشخص المسلم، إنْ وجد أن الخير والضمان فى عدم المصافحة فلا بأس، وإنْ وجد أن المصافحة لا بأس بها حيث يمسّ يد المرأة سريعاً ولا يتأثر بذلك، فالأمر متروك له وإلاَّ كان ترك المصافحة أفضل.

المرأة والتدخين:

المرأة، هذا الجنس الناعم اللطيف، من الخطأ أن تمسك بين أناملها سيجارة تدخِّنها، لأن الدُّخان لن تقتصر آثاره على اصفرار الشفتين وسواد الأسنان والرائحة الكريهة التى تنبعث من الفم، والمال الذى يُبَعْثَرُ فى غير منفعة، بل هناك آثار سيئة تمتد إلى طفلها الذى ينزل إلى الوجود مبكراً عن ميعاده الطبيعى، علاوة على نقص وزنه. وقد أكَّد العلماء والأطباء ذلك، وأضافوا بأن الدخان ـ سواء أكان سيجارة، أم شيشة، أم نشوقاً، أم غير ذلك، فإنه يؤثر على غشاء الرحم عند الولادة، وقد ينفجر.

والأطفال حول المرأة المدخِّنة يُصابون بالتخلُّف العقلى مع تقليل النمو الطبيعى لهم. كما أن الطفل حديث الولادة يتأثر بتدخين الأب أو الأم فيصاب بالربو الشعبى، لأن النيكوتين الموجود فى الدخان يُفْرَزُ فى صدر الأم مع اللبن الذى يرضعه الطفل. كل ذلك لأن نسبة الأوكسجين الطبيعى تقل بسبب الدخان، ويصبح الجسم مهزولاً لا مناعةَ فيه ولا يستطيع مقاومة أى مرض، فينشأ الطفل نحيفَ الجسم، غير متَّزِنٍ ولا متوازن القُوَى.

---

(١) سورة المؤمنون. وسورة المعارج، الآية ٣١.

إن التدخين هو البوابة الشيطانية للإدمان، وموصل جيد إلى التعامل مع المخدرات، وضرره أكثر من نَفْعه. وهو تبذير للمال الذى هو عَصَبُ الحياة، وعلى الإنسان العاقل توجيه المال للخير وفِعْلِه، والمساهمة به فى المشاريع التى لها أثرٌ اجتماعى. ثم إن الرجل ينفر من المرأة المدخِّنة، حتى ولو كان هو مدخِّناً، فلقد أجرى بحث ميدانى على خمسة آلاف شخص، منهم أربعة آلاف مدخِّن، وكان السؤال: هل ترضى لزوجتك أن تدخِّن؟ وكانت الإجابة أنَّ ٧٠٪ من أهل الريف رفضوا رفضاً قاطعاً.

إن الدخان حَرامٌ، وهذا من جهة الإسراف فى المال والتبذير. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

والدخان من الخبائث وقد بُعِثَ النبى ﷺ ليُحِلَّ لنا الطيبات ويُحَرِّمَ علينا الخبائث، حسبما جاء فى قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[3].

هذا، علاوة على أن الدخان يُلَوِّث البيئة، ويضرُّ بالصحة التى هى تاج على رءوس الأصحَّاء لا يعرف قيمتها إلاَّ المَرْضى. والإسلام هنا يضع قاعدة أصلية هى: «الوقايةُ خيرٌ من العلاج».. ثم إن الدخان عادة نُقلت إلينا عن طريق الاستعمار الذى استنزف أموالنا، وعَمِلَ على إضعاف صحَّتنا، ليتمكن من السيطرة علينا واستنزاف خيراتنا، ودفعوا بالمرأة الشرقية أن تقلِّد المرأة الغربية، خاصة عندما نراها فى السينما مدخِّنة مسترجلة، أو فى المشاهد التلفزيونية شريرة أو قائدة عصابة، أو غير ذلك. ونتنبَّه إلى أن السينما لا تمثِّل إلاَّ نسبة ضئيلة جدًّا من واقعنا

(١) سورة الأعراف.
(٢) سورة الإسراء.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

الاجتماعى، لكنها دروس تُلَقِّن لنا عن كل ما شأنه أن يهدر القيم الأخلاقية والعادات الاجتماعية.

إنَّ الدخان عواقبه وخيمة، ولا فائدة منه للرجل أو المرأة، ومجتمعنا فى حاجة إلى كل قرش يُنْفَقُ فيما لا يفيد، والمرأة التى تمسك بالسيجارة بين أناملها الرقيقة وينبعث الدخان من فمها وأنفها يهرب الرجل منها، لأنها شَوَّهَتْ نفسها، وأضَرَّت بصحتها، وأهدرت المال فيما لا يفيد.

إننا هنا نهيب بوزارة البيئة أن تُصدر النشرات التى تُبيِّن أثر الدخان ومضاره على البيئة، وأهيب بالمدرِّسين فى كل مراحل التعليم أن يكونوا قُدْوَةً حسنة، وإن على علماء المساجد أن ينشروا الوعى عن ضرر التدخين وحُكم تبذير المال وتضييعه، وأهيب بكل أم وكل أب أن يكونا قدوة حسنة أمام أطفالهما. كما أهيب بكل مسئول فى كل موقع أن يحافظ على الهواء لأنه إكسير الحياة، وهو نعمة كبيرة من الله، فلا ينبغى علينا أن نلوثه.. وأهيب بكل أم أن تحافظ على نفسها لأنها المنبت للأطفال، فيجب عليها أن تتجنب الدخان وتبتعد عنه، حتى ينشأ أولادها سعداء، متمتعين بصحة جيدة، وحتى ينعموا بحياتهم وسلامة حواسِّهم. كما نقول للمرأة: لا تُدَخِّنى، بل لا تَقْرَبِى من الدخان، لتكونى على درجة عالية من جمال النفس، وحُسن المنظر، وكونى ـ كما قالوا عنك: «الجنس اللطيف».

ختان الإناث

لم تَحْظَ قضية من قضايا المرأة بضجَّة إعلامية كما حَظِيَ موضوع الختان، ولقد خُيِّلَ إلى البعض أنهم أمسكوا بخيط يتصرون فيه على التوجيهات الإسلامية، خاصة أن المؤسسات الدينية تضاربت أقوالها، كما ظهرت بعض الآراء المتضاربة لشخصيات علمية، وقامت أكبر مؤسسة صحية وأصدرت قراراً يحظِّر ختان الإناث. وقام البعض برفع قضايا فى المحاكم. وهكذا كان لكل فريق حيثياته، والتى تبيِّن وجهة نظر كل فريق، ما بين موافق ورافض. وبدت الساحة المحلية والعالمية وكأن ليس لها حديث إلاَّ هذا الموضوع، وقام المعارضون للختان وصوروا بعض العناصر على أفلام الفيديو ووزَّعوها على البثّ الإعلامى الدولى، فى الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر تحت علم الأمم المتحدة يُبرز عملية الختان على أنها لون من التعذيب الجسدى والنفسى للفتاة، والموضوع ما كان يستحق كل هذه الضجة، لأن رسول الله ﷺ حدَّده بقوله: «مَكْرَمَة للنساء». وقد جاء فى «فتح البارى شرح صحيح البخارى»[1]: والمكرمة جمعها: مكارم، وهى اسم الأخلاق، وهى من جوامع كَلِمِه ﷺ، فضلًا عن كونها من أُمَّهات الأخلاق. فالإنسان إذا ختن ابنته فهذا من باب إكرامها، وإنْ تركَها فلا شيء عليه، لكننا نناقش القضية على الوجه الآتى:

أولاً: إن مكان الختان عند الأنثى حسَّاس جدًّا، وتنتشر فيه شبكة من الأعصاب تتراكم أليافها العصبية الكثيرة تحت قمة «البظر» مباشرة، وبين ثنيات وفتحات صغيرة وكثيرة تصب فيها إفرازات تلتصق بالأغشية، لأنها زيتية، ولا بد

(١) ج ١٠، ص ٤٥٧.

من إزالة تلك الإفرازات، لأنها لو تُركت فستولد فيها الجراثيم التى تكون مصدرَ تلوُث، فيتسبب عنه التسمم الذى يقضى على الفتاة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]، لهذا كان من توجيه النبى ﷺ أنه «مَكْرَمَة» وعدم فعله فيه ضرر يهدد الفتاة. ولقد نشرت جريدة الهدف[2] ـ وهى جريدة أسبوعية كويتية ـ تحت عنوان: «الملف ما زال مفتوحاً، وتقرير من أوربا يزيده اشتعالاً»: «ختان البنات يمنع الإصابة بالإيدز، ولا يقضى على اللـذَّة عند النساء».

وطيَّرت وكالات الأنباء العالمية فى الآونة الأخيرة خبراً مفاده: «اعتراف إحدى الدوائر الطبية فى أوربا بأن ختان الإناث يمنع الإصابة بمرض الإيدز». وأضاف الخبر: «أن الفريق الطبى الذى توصل إلى هذه النتيجة أجرى عدة تجارب على عدد من المواطنين فى كندا والنرويج والدانمارك..». ويعتبر عددٌ من علماء الدين والأطباء هذا التقرير اعترافاً من إحدى الدوائر الطبية العالمية، وردًّا على الحملة الشرسة على الإسلام بعد أن صوَّرت عملية ختان لفتاة مصرية مؤخراً وبُثَّ تلفزيونيًّا على مستوى العالم وذلك فى أثناء انعقاد المؤتمر الدولى للسكان والتنمية فى القاهرة عام ١٩٩٤، وأثارت موجة غضب شديدة لدى الرأى العام المصرى، فدارت مناقشات حول هذه العملية ومدى اتفاقها مع الشريعة الإسلامية، فانقسمت الآراء بين مؤيِّد ومعارض لعملية الختان، وتبعتها تطورات أدَّتْ إلى صدور قوانين تحدُّ من تفشِّى هذه العادة. وبعد ما أعلنته الدوائر الطبية الأوربية كان لا بد من أن نُعاود فتح ملف عملية ختان البنات، ونتعرف فى البداية على آراء عدد من الأطباء المتخصصين فى هذا التقرير الطبى الأوربى.

● الدكتور أحمد شفيق، رئيس قسم الجراحة بطب قصر العين: أكَّد أن الطهارة ـ الختان ـ يقضى على سرطان العضو الذكرى أيضاً، وأن هذه النتيجة أعلنتها إحدى الجامعات الأميركية مؤخراً.

● الدكتور عزت الصاوى، أخصائى النساء والتوليد بمستشفى الساحل

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

(٢) فى عددها الصادر بتاريخ ٨/١١/٩٦.

التعليمي بالقاهرة، يقول: إذا كانت إحدى الدوائر العلمية الطبية الأوربية قد توصلت مؤخراً إلى أن الختان يمنع الإصابة بطاعون العصر «الإيدز» وسرطان العضو الذكرى، فإن هذا يدعو إلى الاستغراب... وأضاف: إن ختان الإناث لا غُبار عليه، ولا خوف منه على الإطلاق، والذين يردِّدون دائماً أنه يقلِّل اللذة الجنسية عند المرأة فهذا غير صحيح، فهذه العملية مرتبطة بالعامل النفسى، بل إنه حتى الآن لم يثبت أن ختان الإناث يُسبِّب تقليل اللَّـذَّة الجنسية. فلم يصل أحد من العلماء حتى الآن إلى تلك النتيجة، فكل ما يقال في هذا الصدد افتراءات وأكاذيب يردِّدها البعض.

وقد شارك في هذا المقال كل من: الدكتور حمدى عبد اللَّه، رئيس قسم الجراحة بطب عين شمس. والدكتور محمد خيرات، استشارى أمراض النساء والولادة، وزميل الكلية الملكية لأمراض النساء والولادة بلندن. وقد أضاف مؤكداً: «إن العلم الحديث توصل إلى حماية الإنسان من سرطان عُنق العضو الذكرى، وإن الله دعانا إلى قطع أى زائدة فى هذا العضو، ولذلك فعلينا وعلى كل أسرة ألاَّ تقوم بإجراء عملية الختان إلاَّ تحت إشراف طبيب الجراحة، حتى نقى أنفسنا من أمراض الإيدز».

ويضيف: إن ما توصَّل إيه الباحثون فى أوربا يؤكد أن الختان له مزايا قيِّمة، أهمها حماية الإنسان من الإيدز، بل إن الختان نفسه يحمى الإناث من الالتهابات والاحتكاكات التى تؤدى إلى عملية الهياج والفوران الجنسى، ولا يمنعها حقها فى الاستمتاع الجنسى كما يزعمون.

ونعود لنلقى الضوء على عملية الختان وما أُثير حولها خلال العام الماضى، فقد شغلت الرأى العام المصرى والعربى والعالمى، (والكلام ما زال من المجلة):

بداية يؤكد رجال الدين أن الختان أو الخفاض من سُنَن الفطرة المستحبة فى قوله ﷺ: «خمس من الفطرة: الاستحداد، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر». والمقصود بقوله: «خمس من الفطرة»، أن هذه الأشياء إذا فُعلت اتَّصف فاعلها بالفطرة التى فَطَر الله الناس عليها، وحثَّهم على فعلها، واستحبَّها

لهم، ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها صورة.. ولهذا فقد عبَّر عنه الرسول ﷺ بأنه «مكرمة» للنساء وذلك فى حديث: «**الختان سُنَّة للرجال، مكرمة فى النساء**»، وأرْشَدَ فى تهذيبه فى النساء مقولته للخافضة ـ التى تمارس الختان ـ: «**اخفضى ولا تنهكى، فإنه أحظى للزوج وأسْرَى للوجه**». فالخطأ ليس فى تشريع الخفاض واستحبابه، وإنما فى سوء تطبيقه، حيث يحتاج ذلك إلى وعى وتوعية للنساء، خاصة فى الريف والصعيد.

والختان أو الخفاض ينتشر فى الدول العربية والإسلامية بدرجات متفاوتة ولأسباب مختلفة، فنجده فى مصر يمارس على ٦٠٪ من النساء المسلمات والمسيحيات على حدٍّ سواء، وفى السودان تصل النسبة إلى ٩٢٪ من النساء ولكنه يمارس بطريقة تحدث تشويهاً للأعضاء التناسلية. أما فى الصومال وجيبوتى فكل المواطنات تتم لهنّ هذه العملية، وفى موريتانيا تُمارس هذه العملية باعتبارها واجباً دينياً. كذلك سواحل إفريقيا، وبفضل المكتشفين العمانيين تمارس فى إندونيسيا وماليزيا.

أما الدكتور حاتم سعد إسماعيل شبلي أستاذ أمراض النساء والتوليد والعقم بكلية طب عين شمس فى القاهرة فإنه يشير إلى أن حديث رسول الله ﷺ: «**اخفضى ولا تنهكى**» قد حدَّد الأسلوب الأمثل والجراحى الصحيح لأداء هذه العملية المتخصصة، وأن الإزالة تكون للزائدة فقط بدون تجاوز. كما يجب أن تجرى هذه العملية البسيطة فى أماكن مجهزة، وتحت مخدر عام، حتى لا تتعرض الفتاة لأية آلام أوآثار نفسية. وقال: إنْ كان بعض المنكرين لسُنَّة الختان يستندون فى دعواهم إلى ما يحدث من مضاعفات وأضرار فى بعض الحالات، فما هى إلاَّ نتيجة للممارسات الخاطئة من بعض الجهلاء وغير المتخصصين، فإننا لا بد وأن ندرك أن نفس المضاعفات تحدث فى ختان الذكر إذا ما طُبِّق بأسلوب خاطئ وعلى أيدى بعض الجهلاء، مثل النزيف،والالتهابات، وتشويه مجرى البول، وبتر بعض الأجزاء الهامة فى هذه المنطقة.

وأوضح الدكتور عادل حسن أستاذ الجراحة بطب القاهرة: أن الضمان

الوحيد هو إجراء هذه العملية فى المستشفيات، وذلك لمنع الممارسات الخاطئة، والأضرار والمضاعفات التى يسبِّبها إجراء الختان بطريقة خاطئة على أيدى غير المتخصصين. لذلك لا بد من وضع كل الإمكانيات اللازمة والحديثة أمام الأطباء ليمارسوا هذه المهمة بضمان تام»أ.هـ.

ثانياً: قال فقهاء المالكية: إن السُّنَّة إظهار ختان الذكر، وإخفاء ختان الإناث[1]، لأن الختان عادة بشرية قديمة تداولتها الأجيال جيلًا بعد جيل، حتى كانت تُقام الحفلات الغنائية الملتزمة على ضوء تعاليم الإسلام. يقول الإمام الغزالى فى «إحياء علوم الدين»[2]: «السماع فى أوقات السرور مباح إن كان ذلك السرور مباحاً، كالغناء فى أيام العيد، وفى العُرْس، وفى قدوم الغائب، وفى وقت الوليمة والعقيقة، وعند ولادة المولود، وعند ختانه، وعند حفظه للقرآن العزيز، كل ذلك مباح لإظهار السرور»ا.هـ.

لقد كان الختان عادة مُطَّردة فى الذكور والإناث، وكانت تقام مظاهر السرور، ويُجمع الأطفال والبنات للغناء احتفالاً بهذه المناسبة إذا كان المختون ذكراً. أمَّا خفاض البنات فكان عادة ما يتم فى سِرِّيَّة دون إظهار الفرح والسرور. ويرجع ذلك إلى سببين:

١ ـ الستر على البنات.

٢ ـ تفضيل الذكر على الأنثى.

وكانت الأُسَرُ تقوم بختان الإناث، لأنه لو كان غير مشروع لنَهَى عنه النبى ﷺ، لكنه عليه الصلاة والسلام أقَرَّه وعَدَّلَهُ من الإنهاك إلى الخفض، بقوله لأُمِّ عطية الأنصارية: «أَشِمِّى ولا تنهكى»، فقد شبَّه القطع اليسير بإشمام الرائحة، والنَّهْك بالمبالغة فيه، وعدم استئصال البظر، لأن استئصاله نهائيًا يؤدى إلى البرود الجنسى.

---

(١) يراجع فى ذلك «فتح البارى ـ شرح صحيح البخارى»، ج ١٠، ص ٣٤٣. و«المدخل» لابن الحاج، ج ٣، ص ٢٩٦.

(٢) ج ٦، ص ١٣٥.

ثالثاً: أجمع فقهاء المسلمين على أن الختان سُنَّة مُتَّبعة، لما فى ذلك من مصلحة المرأة وأبرزها الإعفاف عن الوقوع فى الرذائل. كما أنه لم يصدر من رسول الله ﷺ على وجه الإطلاق ـ لا تصريحاً ولا تلميحاً، من قريب أو بعيد ـ ما يدل على كراهة ختان الإناث. وهو الذى وصفه بقوله: **«مكرمة للنساء»**، أو سُنَّة كما جاء فى بعض الروايات. إن المرأة غير المختونة ليس بالضرورة أن تنحرف، لا سيما إذا كانت حياتها قائمة على أساسٍ من الدين وتعاليم الإسلام، لكن كل ما فى الأمر أنها تحتاج إلى الختان لرفع المشقة ودفع الحرج عنها، وسدًّا لذريعة وقوعها فى المحظور.

إن الختان يزيد وجه المرأة حُسْناً، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ فى قوله: **«فإنه أسْرَى للوجه، وأحْظَى عند الزوج»**.

رابعاً: الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: **«إذا التقَى الختانان، أو مَسَّ الختان الختان، فقد وَجَبَ الغُسْل»**[1]. كما روى أبو داود بسنده إلى عبد اللّه بن عُمير عن أم عطية الأنصارية، أن امرأة كانت تختن بالمدينة، فقال لها النبى ﷺ: **«لا تنهكى، فإن ذلك أحْظَى للمرأة، وأحَبّ إلى البعل»**[2]، وفى رواية الحاكم والبيهقى والطبرانى: **«أشمِّى ولا تنهكى»**.

هذا التوجيه من رسول الله ﷺ يُقْصَدُ به ضبط الميزان الحسِّيّ المحرِّك للغريزة الجنسية عند المرأة، ليكون لها مع الاستمتاع بزوجها ضبط الاشتهاء، وبهذا يتحقق الاعتدال عند المرأة، لأنها لو بقيت بدون ختان فربما لا تقدر على ضبط نفسها عندما تتهيج غريزتها، فيدفعها ذلك إلى الاستهتار، أو تُصاب بكبت يؤثر على نفسيتها. إن الإسلام يقيم التوازن النفسى بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، لذلك يضع الضوابط والأسس لتستقيم الحياة فى ظل الاعتدال، وبحيث لا يكون هناك إفراط أو تفريط.

---

(١) أخرجه الإمام الشافعى فى «الأُمّ»، ج ١، ص ٣٦.

(٢) «فتح البارى»، ج ١٠، ص ٣٤٠.

خامساً: إن عضو الذكورة عند الرجال يقابله البظر عند النساء، فهو يشبهه تماماً من ناحية التكوين، غير أن البظر عند النساء ليس به قناة بولية، وطول هذا البظر حوالى «٣» سم، وبطرفه حشفة من نسيج انتصابى إسفنجى حساس، ويغطى هذا الجزء من الأمام جلد رقيق حسَّاس عليه شفران صغيران من الجلد، لونهما وردى، كل ذلك يقع خلف شفرين كبيرين نسبيًّا وفى بعض الأحيان يكونان من الكِبَر بحيث يظهران ـ أى الشفرين الصغيرين ـ كأنهما من الشفرين العظيمين يبرز منهما جزء من «البظر»، بحيث يُقْطَعُ جزءٌ من طرفه الحساس، وهذا هو المطلوب فى الختان ليكون «مكرمة للفتاة» وضبط حياتها الجنسية وعلاقتها الزوجية.

ونؤكد هنا على أن قطع البظر كله فيه جَوْر على الفتاة، ولا يقرُّه الهدى النبوى. وفيه انتهاك لحرمة الفتاة، وقضاء على الأماكن الحسَّاسة فيها، وإهدار لمشاعِرَ فيَّاضة أوجدها الله تعالى لحكمة عالية.

وبهذا نَسُدُّ البابَ أمام المعترضين على الختان، ونقول لهم: لا تحكموا بفعل بعض الناس على التوجيه الإسلامى، ولا تحكموا بالرجال أو النساء على الإسلام ولكن احكموا بقيم الإسلام على الرجال والنساء.

المرأة والعمل السياسي

لقد أنعم الله على المرأة الشرقية بالإسلام، الذى أعلى من منزلتها، وسما بمكانتها، ومنحها من الحقوق ما جعلها تشعر بآدميتها، لأنه قبل نزول القرآن على سيدنا محمد ﷺ كانت إنسانية المرأة مهدورة، وليس لها اعتبار فى المجتمع، حتى إنَّ المؤتمرات كانت تعقد ليتدارس الرجال فيها: هل المرأة إنسان له روح ويسرى عليه الخلود؟ أم هى حيوان بخس أُعِدَّ لخدمة الرجل؟ هل للمرأة حق أن تعبد الله كما يعبده الرجل؟ وهل هى تدخل الجنة فى الآخرة؟ لذلك نظر المجتمع الإنسانى إلى المرأة على أنها ليست أهلًا للتديُّن، والتخلُّق بالفضيلة، وليس لإنسانيتها موضع اعتبار. ومن هنا قال أرباب المذهب المانوى بأنها مجردة من الشرف، وأهدروا شخصيتها، فليس من حقها أن تتصرف فى أى شىء، لعدم أهليتها. فليس لها الحق أن تملك أى شىء، ولا تبيع ولا تشترى، وإنما هى تُباع وتُشْتَرَى، وليس من حقها أن ترث من أبيها أو أحد أقاربها.

ولما أشرقت الأرض بنور ربها وتلقَّى سيدنا محمد ﷺ وحى الله لتبليغه إلى الناس كان أول من تلقَّى وحى الله من فم النبى ﷺ امرأة، هى «السيدة خديجة رضى الله عنها»، فكأن الإسلام من أول لحظة نزوله نظر إلى المرأة باعتبارها «إنسان» لها كل خصائص الإنسان، فهى مثل الرجل تماماً، لأنها أُمُّه، وأخته، وزوجته، وابنته، وما يتفرع منهن، أو يتصل بهن، لذلك قرر الإسلام أهلية المرأة للتديُّن. فهى مساوية للرجل تماماً فى تلك الأهلية ونأخذ هذا المعنى من أن النبى ﷺ كان يُبايع الرجال كما يُبايع النساء. وقد أعلن النبى الطاهر ﷺ أن المرأة مسئولة مسئولية مستقلّة عن الرجل فى الثواب والعقاب، كُلٌّ يُحاسَب على فِعْله، يقول ربنا جلَّ وعلا: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾[1]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

وتأسيساً على ذلك فقد أصبح لها أهلية مستقلة لأن مِنْ حقِّها الميراث الشرعى، وهو فرض بنصِّ القرآن، ترث من أبيها وأخيها وزوجها. يقول الله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ.. ﴾ إلى آخر الآية التى يقول فيها ربنا: ﴿ .. دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾[3]. كما أن من حقها أن تتملك أى شىء، ولا يصادر أحد حريتها فى التملُّك، ولها ذمّة فى البيع والشراء، ولا يحل للرجل أن يتزوج بها إلاّ بمهر يدفعه إليها، وليس لها أن تتجهَّز به، وهو ملك خاص لها، فلا يجوز لأبيها، أو ولى أمرها أن يأخذ من مهرها أى شىء، ومن أخذ من مهرها بدون إرادتها أو إذنها، فقد أخذ ما ليس له ويجب عليه ردُّه[4].

ويقول ابن القيم فى كتابه «زاد المعاد»: «إن المرأة البالغة الرشيدة لا يتصرف أبوها فى أقل شىء من مالها إلاّ برضاها، ولا يجبرها على إخراج اليسير منه بدون إذنها». «إن الفتاة إذا بلغت، وظهرت عليها علامات الرشد، وحُسن التصرف، زالت عنها ولاية وليِّها، أو الوصيّ عليها، ولها أن تتصرف فى شئونها المالية، ولها أن تباشر عقد زواجها بنفسها عند الضرورة»[5].

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الأحزاب.
(٣) سورة النساء.
(٤) يراجع كتاب «المُحلَّى» لابن حزم، ج ٩.
(٥) انظر: «الأحكام الشرعية» للشيخ أحمد إبراهيم، و«رسالة القرآن والمرأة» للشيخ محمود شلتوت.

إن الإسلام هو الذى منح الأهلية الكاملة للمرأة، ثقة منه فيها، وفى أنها سوف تتصرف فيما يحفظ عليها كرامتها، ويرفع قدرها، ويبعد الغبن عنها، لأنها إنسانة، لها حريتها الشخصية وخصائصها النفسية، ويتم كل ذلك فى إطار الرشد والعقل وحسن التصرف، والقدرة على اختيار الأحسن والأكمل فى كل شيء. كما أنها من منطلق ذلك سوف تراعى الكفاءة عند الزواج، مع المحافظة على القيم الأخلاقية النبيلة. إن الإسلام يحترم رأى المرأة إذا استعملت عقلها، واهتمَّت بإظهار الكمالات النفسية، لذلك أجاز لها أن تجير أى شخص فى حالة السلم أو الحرب، فيحترم الناس رأيها، لأن الولاء بين المؤمنين والمؤمنات هو نبع الدين الإسلامى، وعندما تجير أى شخص فلا يُعتدى عليه، حفاظاً على قوة الرابطة بين الفرد والمجتمع، لأن الإسلام وجَّه الدعوة للمرأة لأن تأخذ مكانها فى الصف المتماسك، المتعاون بقيمه الدينية، ومصالحه الاجتماعية، والمصير الذى يسعى إليه. يقول الرسول ﷺ: «**يد المسلمين على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، ويجير عليهم أدناهم**»(١). كما أن الرسول ﷺ قد أجارَ لأم هانئ عندما أجارت أحد الناس وقال: «**أَجَرْنا مَنْ أَجَرْتِ يا أم هانئ**»(٢). كما أنه ﷺ أجارمن أجارت ابنته «زينب» رضى الله عنها. لكل هذه الأسباب يتبين لنا أن الإسلام أعطى المرأة حرية واسعة منضبطة حتى لا يكون هناك تَفَلُّتٌ من هذه الحرية، ولا يستطيع أحد أن يمارى أو ينكر هذه الحقوق التى منحها الإسلام للمرأة.

إن الإسلام عندما وضع المرأة فى الوصف العام «إنسان» قرر أهليتها الدينية والاقتصادية والاجتماعية، وقال فى بيان هذا: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾(٣).

إن المجتمع ما هو إلا أفراد بينهم علاقات، تتآلف قلوبهم على القيم الدينية

(١) رواه أحمد.

(٢) متفق عليه.

(٣) سورة التوبة.

الصحيحة والعقائد الإلٰهية، وهذه أهم رابطة توَصِّل العلاقة بين الأفراد وأفكارهم. فينصهرون فى بوتقة الأُخُوَّة وهم مؤتلفون فى تناسق فريد، فيصبحون كالجسد الواحد والبنيان المشدود. إن الإيمان هو أقوى دعامة تقوم عليها شخصية الفرد باعتباره وحدة بشرية ذات كيان مستقل ومسئولية خاصة أمام الله والمجتمع، يقوى ذلك الحب لله وفى الله، والتناصر فى سبيل الخير ودعم القيم الاجتماعية النبيلة، كل ذلك يؤدى إلى أن كل شخص مسئول عن الحفاظ على مقومات المجتمع إداريًا وسياسيًا واقتصاديًا ودينيًا. وعلى المرأة واجبها فى ذلك ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا فى حدود ما تسمح به التقاليد الاجتماعية والآداب البيئية، والعرف السائد بين الناس. فالإسلام يبيح للمرأة المشاركة فى الميدان السياسى فى تلك الحدود، والرسول ﷺ يمنح هذا الاهتمام والدخول فيه فى قوله ﷺ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»(١).

إن مصالح الناس تضيق فى أذهانهم أو تتسع حسب سعة آفاق الشخص العقلية وثقافته العامة واستعداده الخاص. وجدير بالمرأة ألاَّ تتدخل فى أى مجال من مجالات المجتمع على جهلٍ أو سوء فهم، بل عليها أن تدرس الأمور وتخطط لنفسها بما يحفظ عليها كيانها وقيمها وآدابها. وإذا كان بعض الناس يعيشون فى حيرة فمرجع ذلك إلى ضيق الأفق وعدم الفهم لمجريات الأحداث. ولقد قرر رسول الله ﷺ ـ وهو الذى لا ينطق عن الهوى ـ أن من حق المرأة أن تخرج إلى المسجد تؤدى فيه الصلاة خلف الإمام الراتب، وإن كان الصفُّ المؤخر خيراً لها، إلا أنه أباح لها ذلك، ومن المعلوم أن المسجد هو (مجلس شعب مُصَغَّر فى كل حي)، وأعضاؤه هم الرُّكَّع السّجود، فيقول عليه الصلاة والسلام: «لا تمنعوا نساءكم المساجدَ... وبيوتهن خير لهن»(٢). كما أن الإمام الماوردى ذكر فى كتابه «الأحكام السلطانية» أن ابن جرير الطبرى جَوَّز أن تقوم المرأة بعمل القضاء فى جميع الأحكام. كما يقول أبو حنيفة: «يجوز للمرأة أن تتولى القضاء فيما تصح فيه

(١) رواه البيهقى.
(٢) رواه أبو داود.

شهادتها، ولا يجوز لها أن تقضى فيما لا تصح فيه شهادتها».

إن المرأة إنسان اجتماعى يمثل شطر الإنسانية، فكيف تحرم من حق يتوحد به المجتمع وهى شطره؟ إن هيئة الأمم المتحدة بعثت سكرتيرها العام بسؤال إلى جميع حكومات العالم ملخصه. «ما هو المركز الذى تحتله النساء فى مسألة الحقوق المدنية؟ وهى: حقوق الانتخاب، وشغل المناصب العامة. وما الدليل على أن موقفهنّ الحالى لا يعارض هدف ميثاق هيئة الأمم المتحدة من فوارق الجنس؟». ولقد وصلت إجابات الحكومات من كل دولة، لتبين أن سبعاً وأربعين فى المائة من الدول تسمح بحق الانتخاب للمرأة، وبشغل المناصب العامة، وأن ٤٣٪ من الدول ليس عندها قوانين مماثلة، وأن دولتين من الدول تمنح المرأة حقوقاً محدودة، ولم تصل معلومات دقيقة من باقى الدول.

إن الإسلام وقد منح المرأة هذه الأهلية فقد أباح لها أن تتولى الإفتاء إذا ما أعدَّتها دراستها لذلك، وقد سُئل الإمام الأكبر «محمد مأمون الشناوى» شيخ الأزهر عن جواز منح المرأة المسلمة حق الانتخاب وحق تولِّى المناصب؟ فأجاب: «إن الإسلام لا يُمانع فى ذلك إذا أُمِنَتِ الفتنة». ونذكر أن مجلس الشيوخ المصرى لم يوافق على اقتراح تقدَّم به أحد أعضائه وهو «زكى العرابى باشا»، وذلك بمنح النساء حق الانتخاب، فلم يوافق المجلس، لأن هذا يُحْدث انقلاباً خطيراً فى حياة المجتمع لا تُحْمَد عقباه. وكان الأمر كذلك بالنسبة للسيد «محمد على علوبة باشا»، حيث رفض طلبه. وجاء فى المذكرة التى تقدَّم بها هذان الشخصان: «أن الإسلام تلقَّته السيدة خديجة من فم النبى ﷺ، ومن لحظتها وهى تقوم بعمل وزير داخلية له، فلقد أشارت عليه أن يذهب معها إلى «ورقة بن نوفل»، ثم إنها ظلَّت بجواره تشجِّعه على تبليغ الدعوة وتواسيه بمالها. وفى بيعة العقبة التى بايع الرسول ﷺ فيها أهل يثرب أن ينصروه ويحموه كان مع الرجال نساء. وفى صُلْح الحُدَيْبِيَة عندما وقَّع الرسول ﷺ على المعاهدة التى عرفتها قريش على يد سفيرها «سُهيل بن عمرو» وكان ظاهرُ المعاهدة قاسياً جدًّا للمسلمين، فظهر فريق المعارضة يتزعمهم «عمر بن الخطاب»، وتباطأ هذا الفريق فى طاعة أمر النبى ﷺ لهم

بالحَلْف ليتحلَّلُوا من العُمْرَة، فغضب النبى ﷺ ودخل على زوجه «أم سلمة» وهو فى حالة غضب مما بدر من المسلمين، لكنها هدَّأت من روعه وأشارت عليه أن يحلق أولاً، فإذا ما رآه المسلمون تبعوه، وتمّ ذلك فعلًا، وكان من حُسْنِ رأى المرأة وفضل مشورتها حَسْم هذا الموقف.

وفى عهد عمر بن الخطاب وهو على المنبر فى المسجد يخطب ويريد أن يحدد مهر النساء، فوقفت له امرأة وعارضته، واستدلت بالقرآن على رأيها. والمسجد يشبه البرلمان، لذلك رجع «عمر» عن رأيه ونَزَلَ على رأى المرأة. ثم إن القرآن يقصّ علينا قصة بلقيس المرأة العظيمة التى حكمت قومها وانصاعوا لها لحُسن تصرفها وفطنتها وكياستها، ثم قادت قومها إلى النجاح والفلاح عندما أسلمت مع سليمان لله رب العالمين. وفى الإسلام الشىء الكثير من عظماء النساء تَوَلَّيْنَ الحكم وهو أشد أعباءً من الانتخابات للبرلمان والنيابة عن الأمة، مثل الملكة الزهراء بالأندلس، وهى أول ملكة فى الإسلام، والملكة اعتماد ملكة أشبيلية، والملكة ثريا ملكة غرناطة. كما أن هناك من النساء من تَوَلَّيْنَ المناصب الرفيعة فى الدولة، مثل الأميرة «لمبا» بنت السلطان «حمدون» ملك سلجماسة ببلاد المغرب، كانت هذه وزيرة لوالدها ومدبِّرة شئون الدولة، كما كانت السفيرة الموفَّقة بين والدها وبين المعز لدين الله الفاطمى حاكم مصر، وقد استطاعت بكفاءتها وذكائها أن تُقَرِّبَ وجهات النظر، وأن تحل المشاكل بينهما. وفى عهد العصر الفاطمى فى مصر كانت وزارة الخارجية تسمى «نظارة الإنشا»، وتولى هذه النظارة «ست غزل». كما أنه فى عصر الخليفة العباسى نُودى بالخلافة والملك بمصر للملكة «فاطمة أم خليل، الشهيرة بشجرة الدر». ولعلنا نذكر أن الملكة «حتشبثوت» كانت فوق تولِّيها الملك تتولى وظيفة الكاهن الأعظم، وكانت تظهر بلحية مستعارة تشبُّهاً بالكهنة، وهى فى هذا الوقت سيدة مصر الأولى، وعلى جانب عظيم من الثقافة والكفاءة والنشاط.

إن الإنسان ليعجب أن الرجل الذى لا يقرأ ولا يكتب له صوت فى الانتخابات، وإذا تعلَّم أن يَفُكَّ الخط ويكتب اسمه يرشح نفسه للنيابة عن الأمة، فى حين تُحْرَم المرأة المتعلِّمة التى لديها فكر عن شئون الأمة، ودراسة بمجريات

الأحداث، ومع ذلك تحرم من إعطاء الصوت أو الترشيح، إنه بهذا يُصاب الوطن بالشلل التام، لأن الكفاءات أُبعِدت عن المساهمة فى رُقِيّه. إن المرأة المتعلِّمة لا بد أن يكون لها دور فى قيادة الأمة، لأن النساء إذا تعلَّمنَ استطعن قيادة الأمة إلى الرقى، فننظر مثلًا إلى «راشكومارى أمريت كور»، وهى امرأة هندية تولّت رئاسة هيئة الصحة العالمية، التابعة لهيئة الأمم المتحدة، وكانت لها قدرتها العظيمة الفائقة البالغة، التى أدَّت إلى تخفيف ويلات المرض عن البلاد الفقيرة ومساعدة الدولة لعلاج المواطنين. كما أن هناك وزيرة التأمين القومى فى إنكلترا الدكتورة «إديث سمرسكيل»، وكانت نائبة فى مجلس العموم البريطانى» ومع ذلك كانت سيدة مجتمع من الطراز الأول، ومُحاورة جيدة، ومُجادلة قوية الحِجَّة، حصلت على مؤهلاتها العلمية فى سن الثانية والعشرين، ولها كتاب «أطفال بلا دموع»، ومع كثرة أعبائها كانت مشاركة فى جمعيات لا حصر لها تتصل بالصحة والأمومة والطفولة. كانت تتمتع بمكانة ممتازة وسمعة عظيمة عند الكثير من الدول، حيث وُجِّهت لها الدعوة لبحث حال النساء ومراكز الحضانة، وكانت تؤدى مهمتها بهمّة ومقدرة فائقة، وحضرت إلى مصر فى عهد أحمد حسين بك وزير الشئون الاجتماعية آنذاك. ولعلنا نذكر فى العهد القريب «تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا، والتى لقَّبوها بالمرأة الحديدية، وكذلك «بانظير بوتو» رئيسة وزراء باكستان، والعديد غيرهن فى كثير من الدول.

إن حرمان المرأة من الانتخاب يتعارض مع ما رأيناه من نماذج، ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام أباح لها أن تخرج مُجاهِدَةً فى سبيل تأدية الواجب. إن الإسلام أجاز للمرأة أن تدخل الانتخابات عند الاستعداد الفطرى، ولا يدعونا عدم الفهم إلى التحمس بالمغالطة والتعامى عن المستوى الاجتماعى بل علينا أن نقرأ بفهم وتعمق، فإن الإسلام أجاز لها أن تكون قاضية، كما أجاز لها أن تكون مفتية، إلى غير ذلك من الأمور العامة التى هى أُسُسٌ لنهوض المجتمع ورُقِيّة. إننا نؤمن أشد الإيمان بأن الوضع الصحيح للمرأة هو بيتها، حيث تجد فيه دفء العاطفة ورعاية الأولاد، هذا هو المنطق الحق، فليست القضية أن ننظر إلى الحقائق ببصر كليل ولا ننظر إلى الحقائق الجليّة.

إن المرأة من حقها أن تخرج إلى المجتمع بحيث توفّق بين عملها والبيت فإن انتفى التوفيق قلنا لها: اختارى أى الدَّوْرَين: الدور الذى ينجب الذرية ويحفظ تسلسل الحياة، أو الدور الذى يقوم مقام الحاشية والقشرة. ونحن نرى أن الواقع فى أى عمل تزاوله المرأة أو الرجل خارج البيت يكون الرجل متفوقاً فيه. وتلك إرادة القدرة الإلٰهية التى جعلت المرأة أنثى لتقوم فى المنزل تربِّى الأولاد لأن البيت هو المكان الطبيعى لها ولتحقيق المقاصد العليا الروحية والاجتماعية التى أرادها الله بخلق الأنثى، لأن الأصل فى هذه الدنيا أن تستقيم الأمور الاجتماعية التى تحتاج إلى تدبير وحركة بالرجال، حيث البأس والعقل والقوة. ثم إن المرأة فيها رأفة ورحمة وحياء عن الرجال. وإذا كانت بعض النساء قد بلغن من سداد الرأى ورجاحة العقل ما تفوّقن به على الرجال، فهؤلاء لا بأس بهن أن يبرزن إلى الصفوف، ويتقدَّمْنَ إلى الانتخابات، فعندهن القدرة لشرح القضايا التى تتعلق بجنسهن، ويدلون بدلوهن فى السياسات العامة، ونذكر المرأة التى عارضت عمر عند تحديد المهر، وأم سلمة يوم الحديبية. والتاريخ مملوء ببعض السيدات اللاتى تفوّقْنَ فى الأدب والشعر والطب وغير ذلك من أمور الحياة. والإسلام لا يحجر على هذه العقليات أبداً، وإنما مع فتح الباب أمام المرأة يطالبها بالحشمة، والخُلُق الكريم، وعدم الخلوة مع الأجنبى، تحت أى مسمى كان، لأنه ما اجتمع رجل وامرأة إلاَّ كان الشيطان ثالثهما.

إن الله سبحانه وتعالى هو أعدل العادلين، ذكر لنا فى القرآن الكريم قصصاً بيَّن لنا فيها المثل الأعلى الذى علينا أن نحتذيه لننجح فى حياتنا، ونفوز بالدرجات العُلَا يوم القيامة. إن التاريخ يحفظ أن الكثيرات من النساء تقدَّمْنَ الصفوف الأولى فى كل شىء كأم ياسر، وأمينة الرملية التى كان الإمام أحمد بن حنبل يسألها الدعوات، وبديعة الأجرودية التى أبت أن تأكل مما تخرجه (أرض بجيلة) لأن أهلها لا يُوَرِّثُون النساء، وكأخت بشر الحافى التى بلغ من وَرَعِها ألاَّ تغزل على ضوء مصباح ليس لها. . . وغيرهن كثيرات.

إن المرأة نضَّرت جوانب الأدب العربى بمواقف متعددة، والتاريخ لا يكذب،

فلقد ظهر من النساء من أخذن لُبَّ الرجال فى تفوقهن، ونبوغهن، كأخت الحفيد بن زهر الأندلسى، وابنتها، حيث حدَّث صاحب «طبقات الأطباء» عن نبوغهن في فروع الطب جميعاً، وفى أمراض النساء خاصة، وكذلك زينب طبيبة بنى أود، وكان أخص ما برعت فيه علاج العين، وإجراء العمليات الجراحية، وغير ذلك كثيرات. الأمر الذى يجعلنا نقول: إننا ونحن ننادى على المرأة: اعلمى بأن قضية المرأة لا وجود لها عند المسلمين، لأنها أدرى بطبعها، وأعرف بشأنها، وهى التى تضع تفاصيل حياتها. فلقد ثبت أن النساء كُنَّ يخرجن بإذن رسول الله ﷺ مع الجيش، لخدمة الرجال وتمريض الجرحى. فهى هنا لها أن تلتحق بالجيش وقت الحرب، لتقوم بأعمال التمريض، ولها أن تحمل السلاح فى الحرب، كما ورد فى خبر الرميصاء، زوج أبى طلحة، أنها اتخذت خنجراً يوم حُنين، فلما سألها زوجها قالت: اتخذته إنْ دنا مِنِّى أحد المشركين بقرتُ بطنَه، وقد أخبر زوجها رسول الله ﷺ بذلك فلم ينكر عليها. ويقول ابن حزم: وجائز أن تلى المرأة الحكم، لأن عمر بن الخطاب وَلَّى «الشفاء» ـ وهى امرأة ـ شئون السوق، وهو ما يماثل اليوم وزارة التموين. وكل ذلك واضح لا غموض فيه، المهم أن ذلك لا يلهيها عن وظيفتها الأساسية، وعليها أن تتقن عملها، لأن الرسول ﷺ يقول: «**إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[1].

إن رُقِيَّ المرأة هو رُقِيُّ إنسانيتها، وثقافة عقلها، وسُمُوّ خُلقها، وصفاء قلبها وطبعها، فإن ذلك يؤدى إلى إتقان ما تزاوله من عمل.

إن المرأة الغربية فقدت حريتها يوم أن تخلَّت عن مسئوليتها المنزلية، وظهر أثر ذلك فيما تمارسه من حرية بلا ضوابط، فهى تغشى الملاهى كما تشاء، وتزاول لعب القمار، وتشرب الخمر، وترقص، وتمارس علاقتها الجنسية بالرجل كما تريد وتشتهى، وأصبحت الحياة فى نظرها مُتعة، تشرب كأس اللذات إلى صبابتها، وتسعى وراء ذلك، فهى فى الأندية بعض الليالى، والفنادق كذلك والمقاهى، وهى لا تخاف النتائج الطبيعية، ثم انطلقت بعد ذلك لتطالب بتحقيق المساواة بالرجل

---

(١) رواه البيهقى.

تماماً، وامتهنت فى الحياة مهنة الرجل، ونسخت كثيراً من الفوارق الطبيعية، فأصبحت تعيش فى دوَّامة الحياة، فلا هى ميتة فتستريح، وليس لها مستقبل تعيش من أجله، ولم تنصف نفسها، إذ أهملت أشرف خصائصها، ثم عاشت فى دوامة الحياة، وأصبحت تلعن الثورة الصناعية، التى جعلتها تنسلخ من أقدس تراثها، وعاشت فى تمويه، وليس فى يدها سلاح تهزم به الحاضر لتعود إلى بيتها آمنة، فلا هى أنصفت نفسها، ولا هى أنصفت إنسانيتها، وخلت حياتها من شرف الأمومة، وقيم المودَّة والرحمة، فأصبحت فى خواء روحى، لذلك فهى تتخلص من حياتها بالانتحار، وكثيراً ما نسمع مأساتها. ولعل ما ابتدعوه من «عيد الأم»، و«عيد الحب»، و«عيد الأسرة» ينبئ الشخص السَّوى بما تعيش فيه المرأة الغربية من تمزُّق نفسى، أمَّا المرأة المسلمة فقد شرع الله لها شِرْعَة الإخاء، والمودَّة، والعطف، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] ويكفى أن الرجل العربى قال:

رأيتُ رجالاً يَكْرَهُونَ بناتهم وفيهن ـ لا نكذب ـ نساءُ صوالحُ

وفيهن والأيام يعثرْنَ بالفتى عوائدُ لا يَمْلَلْنَهُ ونوائحُ

لقد تطامنت الرؤوس وتساوت النفوس، فلم يكن بين المرأة والمرأة إلا الخير تتقدم به، أو العمل الصالح تسبق إليه. ولها من دقة الحس، وقوة العاطفة، وجدان متأثر، لا تكاد تسمع خبراً، أو تلمح منظراً، أو تطيف بها ذكرى، حتى ينال ذلك من أعماق نفسها، وأسرار وجهها، وشئون عينيها، ولها مع ذلك سمات الحسن، وصفات الجمال، وحُسن المنطق، ما جعل الرجل يحرص عليها، ويجنِّبها كل خطر تسير إليه.

(١) سورة الحجرات، الآية ١٠.

خـاتمـة

وبعد:

فإن الرحلة لم تتوقف، وما زلنا نسير فى ماضى المرأة وحاضرها، وإن ما قدَّمناه يلقى الضوء أمام أعيننا ويُبَيِّن لنا بوضوح أن الإسلام أنصفَ المرأة وكَرَّمَها، وسَمَا بمنزلتها، وحَصَّنَ نفسها، وطَهَّرَ وجدانها، وأمر الرجلَ بإكرامها، ونهى عن إيذائها، ورَغَّبَ فى تعليمها، ومنحها ذمَّة مالية مستقلة عن الرجل.

والإسلام عندما منحها ذلك ـ وأكثر ـ كان الغرض منه أن يقول للمجتمع الذى ظلمها ونَقَصَ من قَدْرِها ووأدها ـ أو عزلها عن المجتمع: هذا ظُلْمٌ لنصف المجتمع الإنسانى، والله لا يحب الظالمين.

لذلك وجب على المرأة أن تلتزم بمبادئ الإسلام وتتمسك بها، وتنادى بتطبيقها، وأن تكون هى قدوة صالحة معبِّرة عن الإسلام وقِيَمه وآدابه.

عاوِدِى ياابْنَتِى قراءة هذا الكتاب مرة بعد مرة لتعرفى دور جَدَّتِكِ كيف نَشَّأَتِ البنين والبنات؟ وكيف كانت مدرسة تغرس فى النَشْء تقاليد المجتمع الفاضل؟ وكيف كانت تغرس فى نفوسهم تعاليم الإسلام وآدابه؟ فينشأ الأبناء على خير وسعادة وهناء.. وهذا ما نرجوه مِنْكِ يا بنتَ اليوم وأُمَّ الغد، وجَدَّةَ المستقبل.

وإلى لقاء قريب مع نماذج نسائية أعطت المَثَل العملى فى تنمية المجتمع

ورُقِيِّه، وتطوير أساليب الحياة مع المحافظة على منهج الإسلام وآدابه، وقِيَمه وأخلاقه.

وصلَّى الله وَبارَكَ على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين.

منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف
للمساجد وشؤون القرآن

فهرس المحتويات

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
حديث القرآن عن المرأة	٧
الإسلام أنصف المرأة	٩
شهادة المرأة	١١
المرأة فى ظل التشريع الإسلامى	١٢
المرأة المسترجلة	١٩
الحجاب	٢١
الحجاب قبل الإسلام	٢٢
حُلِيّ المرأة العربية	٢٥
حالات لا تهتم فيها المرأة بنفسها	٢٥
ثياب المرأة العربية	٢٦
نظرة إلى وسائل التجميل الحديثة	٢٧
وصية للمرأة	٢٩
الإسلام وموقفه من تجمُّل المرأة وتزيُّنها	٣١
إبداء وجه المرأة وكَفَّيها	٣٢
جلباب المرأة	٣٦
المرأة والتعليم	٣٩
عَوْد على بَدْء	٤١
الطلاق	٤٥

نظرة المجتمع إلى المطلَّقة ٤٥
الضمانات التى وضعها الإسلام للحفاظ على كيان الأسرة واستقرارها ٤٨
نشوز الزوج ٥٠
نشوز الزوجة ٥٣
منهج الإسلام فى إصلاح نشوز الزوجة ٥٤
الخُلْع ٥٥
ليس فى الإسلام ما يُسمَّى ببيت الطاعة ٥٧
أبغض الحلال إلى الله ٥٨
شهور العِدَّة ٥٨
الظِّهَار ٦١
طلاق السُّنَّة وطلاق البدعة ٦٣
عدد مرات الطلاق ٦٤
المُحَلِّل ٦٥
العِدَّة ٦٥
المرأة أثناء العِدَّة ٦٦
سلوك الزوجين بعد الطلاق ٦٨
لا إكراه فى الإسلام ٦٩
مكانة المرأة فى الإسلام ٧٣
ضُروبٌ من الوهم ٧٦
عَمَل المرأة ٨٠
أثر عَمَل المرأة على الأُسرة والمجتمع ٩٣
سفر الرجل للخارج وتَرْك الزوجة والأولاد ٩٧
الإسلام يكفل للمرأة حق العمل ١٠٠
إهمال شأن البيت والزوج والأولاد ١٠١
المناداة بعودة المرأة إلى البيت ١٠١
قراءات فى أوراق قديمة ١٠٤

المرأة والتدخين ١٠٩
ختان الإناث ١١٢
المرأة والعمل السياسى ١١٩
خاتمة ١٢٩
الفهرس ١٣٣

المؤلف في سطور

- وكيل وزارة الأوقاف الأسبق
لشؤون القرآن والمساجد.
- خدم المؤلف في مجال الدعوة الإسلامية
في الداخل والخارج.
- له مؤلفات تزيد على ٥٥ مؤلفاً.
- حصل على وسام العلوم والفنون
من الطبقة الأولى من الدولة.
- حصل على درع التفوق من وزارة الأوقاف
في الدعوة الإسلامية.
- حصل على ميدالية العامل المثالي
من وزارة القوى العاملة.
- عضو إتحاد الكتاب المصري.
- عضو شعبة الرعاية الإجتماعية
بالمجالس القومية المتخصصة.
- عضو شعبة الشباب والرياضة
بالمجالس القومية.
- شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية.
- أسهم بنشاط وافر في العمل الإجتماعي.

هذا الكتاب

المرأة مازالت تشغل بال المفكرين والباحثين في كل عصر ومصر، لذلك كان حديث هذا الكتاب عن المرأة كما تحدث عنها الله في كتابه الكريم وعلى لسان رسول العظيم سيدنا محمد ﷺ.

فهل بلغت المرأة من التكريم في أي تشريع ما بلغته في الإسلام؟ فهو الذي أنصفها خير إنصاف، وكرمها كما لم تكرم في أي دستور وضعي، أو اجتهاد بشري. فإذا هي في نظر الإسلام كائن يتمتع بكل مزايا الإنسان، حيث حض الرجل على احترامها، ونهاه عن إنزال الظلم بها كما كانت تلقى في العصور المظلمة التي ألغت شخصيتها، وطمست هويتها وأكلت ما لها من حقوق، ولم تعترف بإنسانيتها ولا بأي حق لها عند الرجل على الإطلاق. هذا الكتاب الذي في حوزتنا يسلط الضوء على قضية المرأة، فهو يرمي إلى غاية واحدة وهي كيفية إنصاف المرأة في الإسلام المحمدي الأصيل. ولكي يظهر في النهاية بأن الإسلام وحده قد حقق الإنصاف الكامل للمرأة، إذ أنقذها من عادة الوأد لدى بعض القبائل العربية قبل الإسلام، وحولها من كائن هامشي إلى أن تصبح نصف المجتمع ولها كيانها الشخصي وذمتها المالية لأنها كاملة الأهلية ومن هنا بات على المرأة أن تلتزم بمبادىء الإسلام وتتمسك بأهدابه وتعاليمه، لتكون هي الأخرى النموذج المتبع، والقدوة الصالحة المعبرة عن قيم الإسلام وآدابه.

ولهذا أيضاً يتوجب عليها العودة إلى هذا الكتاب، وقراءته بتمعن وانتباه، واستبطان ما فيه من دروس وعبر.

وفي هذا الكتاب الذي وضعه الشيخ منصور الرفاعي عبيد ما يحقق هذه الرغبة لكل من جاءته واردة، لأنه اشتمل على مختلف المواضيع التي تهم المرأة المسلمة لتتعرف إلى الصراط المستقيم، وتتمثل بسيرة أمهات المؤمنين، والنساء الصالحات على مر العصور.

الناشر